راجع إلى هذا السبب ، وهذا مجرد احتمال على كل حال ، إذ ليست لدينا أدلة يقينية تثبت أو تنفى هذا التطور . إن التطور فى الأصوات بالذات لا يتأكد إلا بالاستماع الفعلى لها ، وأنى لنا ذلك وليست لدينا تسجيلات (أو حتى وصف علمى دقيق) لهذه الأصوات ، ولكنا مع ذلك لا نستطيع أن نهمل فكرة التطور هذه بحال من الأحوال ، اعتمادًا على ما نعرفه من طبيعة الكلام الإنسانى وقابليته للتطور والتغير من عصر إلى عصر ، واعتمادًا على المشاهد الملموس الآن فى اللهجات العامية . ففى هذه اللهجات تطورات صوتية واضحة إذا قيست بما يقابلها فى أصوات اللغة الفصيحة فى القديم والحديث .

إن نظرة فاحصة دقيقة إلى ذلك الترتيب الذى وضعناه للأصوات ووصفنا لمخارجها وأحيازها وإلى ما فعله ابن جنى فى هذا الشأن لتخرج بنا إلى هذه الخطوط العريضة :

١ - مجال الاتفاق بيننا وبينه أوسع من مجال الخلاف .

٢ - كثير من نقاط الخلاف يمكن أن نغض النظر عنها وأن نهملها ، وذلك لشدة التقارب والتداخل بين مخارج النطق . فليس هناك فى الواقع حدود فاصلة فصلا تامًا بين بعض هذه المخارج . ومن ثم كان من الجائز أن تنسب مجموعة من الأصوات إلى مخرج معين ، وينسبها باحث آخر إلى مخرج آخر قريب منه أو متصل به ومتداخل معه . أو ربما يرجع الخلاف بيننا وبينه (أو بين غيره) إلى الملاحظة الذاتية والخبرة الشخصية . فقد تنطق صوتًا ما من مخرج معين وينطق شخص آخر هذا الصوت نفسه من موضع قريب

منه ، وذلك بسبب الاختلافات الفردية فى الخبرة الصوتية (واللغوية بوجه عام) بين المتكلمين .

٣ – أما وصف ابن جنى للمخارج بالصورة التى سجلها فى كتابه وترتيبه لها فهو يدل على قوة ملاحظته وذكائه النادر . والحق أن النتائج التى وصل إليها هذا العالم فى هذا الوقت الذى كان يعيش فيه لتعد مفخرة له ولمفكرى العرب فى هذا الموضوع . ومما يؤكد براعتهم ونبوغهم فى دراسة الأصوات أنهم قد توصلوا إلى ما توصلوا إليه من حقائق دون الاستعانة بأية أجهزة أو آلات تعينهم على البحث والدراسة كما نفعل نحن اليوم .

وليس معنى ذلك على كل حال أن كلام هؤلاء العلماء مسلم به جملة وتفصيلا ؛ بل هناك نقاط جديرة بالمناقشة والتوضيح . وهى أهم نقاط الخلاف بيننا وبينهم . وسوف يتضح ذلك فيما يلى :

١ – الحكم بأن الهمزة هى أول الأصوات العربية مخرجًا حكم سليم ولكنها ليست من أقصى الحلق وإنما هى من الحنجرة . أما أن الواو هى آخر الأصوات مخرجًا ، أو بعبارة أخرى أما عَدُّ الواو شفوية فهذا قول يحتاج إلى تكملة؛ إذ البحوث الحديثة تثبت أن الواو (فى نحو ولد) تخرج من أقصى الحنك أى من منطقة الكاف أو ما يقرب منها، مع اتخاذ الشفتين وضعًا معينًا . ولكن ذلك لا يكفى مسوغًا لعدها شفوية . وإن أردنا أن نجمع بين هاتين الجهتين يمكن القول بأن الواو حنكية – قصية (أى من أقصى الحنك) شفوية ، وربما يكون وضعها مع الكاف وأخواتها أدق من وضعها مع الباء والميم ، على

الرغم من أن بعض المحدثين من علماء الأصوات قد اتفقوا مع ابن جنى فى عد الواو شفوية فقط.

٢ – وضع ابن جنى صوت القاف بعد صوتى الغين والخاء ، بعكس ما فعلنا نحن، إذ هى عندنا سابقة عليهما لا تالية لهما . وذلك بالطبع له تفسير خاص ، سنأتى به فى مكانه .

٣ – مخرج الضاد عند ابن جنى بعد الياء وقبل اللام أو هى من مخرجها عنده . أما الضاد كما ننطقها اليوم فهى فى الترتيب مع التاء والدال والطاء. (والضاد العربية من حيث مخرجها وصفاته قصة طويلة ، سوف نوجزها فيما بعد ص ٢٥٣ – ٢٧٢ .

٤ – يرى ابن جنى أن الصاد والزاى والسين تالية للطاء والدال والتاء . أما نحن فنشعر بالعكس ونحس بأنها سابقة على هذه الأصوات وليست تالية لها من حيث المخرج . والملاحظة فى نطقنا الحالى للزاى والسين والصاد هو وضع طرف اللسان خلف الأسنان العليا مع التقاء مقدم اللسان باللثة التقاء خفيفا من شأنه أن يحدث الاحتكاك الذى نسمعه عند نطقها .

ومعنى هذا أن هذه الأصوات «سنية» لو نظرنا إلى الوضع الأول، ولكنها لثوية بالنسبة إلى الوضع الثانى . ومعناه أيضًا صحة تسميتها أصواتًا أسنانية – لثوية بالاعتبارين معًا . وهذا ما سلكه بالفعل بعض الدارسين المحدثين ، حيث ضموها إلى الطاء والدال والتاء والضاد . ويبدو أن ابن جنى ركز نظره على التقاء طرف اللسان بالأسنان ، وأهمل التقاء مقدم اللسان باللثة ، وهو الالتقاء الذى نتج

منه الاحتكاك الذى يعد خاصة مهمة من خواص هذه الأصوات الثلاثة . وقد سوّغ لنا هذا عدَّها أصواتًا لثوية ووضعها مع الراء فى مجموعة واحدة .

٥ – أما أظهر مواضع الخلاف بيننا وبينه فيتمثل فى ذكره للألف وعدم ذكرنا لها فى الجدول السابق . أما أننا لم نذكر هذا الصوت فى سلسلة الأصوات الصامتة لأن الألف (بوصفه ألف مد) يعد حركة فى كل مواضعه فى اللغة العربية، وهذه الحركة هى الفتحة الطويلة . وعلى هذا لا مكان لها فى هذه الألفباء ، لأنها ألفباء الأصوات الصامتة ، ولا يعترض علينا بذكر الياء والواو فى هذه الألفباء ؛ لأن الواو والياء – كما قدمنا – لهما جانبان . الجانب الأول كونهما حركتين هما الضمة والكسرة الطويلتان ، والجانب الثانى كونهما من الأصوات الصامتة ، وهما مذكوران فى ألفباء ابن جنى بهذا الوصف الأخير ، بدليل وضع الياء مع الجيم والشين ، وهذا مالا يمكن عمله بالنسبة للياء المدية (أى الكسرة الطويلة) .

وعلى فرض التجاوز عن الخلط بين الأصوات الصامتة والحركات عند ابن جنى والتسليم بجواز وضعها فى الألفباء التى ذكرها ، يبقى الاعتراض المهم وهو وضعها عقب الهمزة أو معها . فالهمزة – كما عرفت – صوت حنجرى . أما الألف فليس مخرجها الحنجرة أو الحلق ، كما فهم ابن جنى ، وإنما هى حركة يتحدد موضع نطقها بوضع اللسان وضعًا معينًا فى الفم تجاه الحنك الأعلى . هذا الوضع هو كما سنعرف فيما بعد أن يستقر اللسان فى قاع الفم بحيث يكون – أو يكاد يكون –

مستويًا . والحركات كلها فى الواقع تحدد بطريق وضع الفم تجاه الحنك، وبدرجة ارتفاع اللسان أو هبوطه .

ويبدو أن ابن جنى قد غفل عن هذه الحقيقة ، وهى وضع اللسان وحركته تجاه الحنك الأعلى ودرجة ارتفاعه وهبوطه ، وركز اهتمامه على مكان آخر سماه هو أقصى الحلق . والواقع أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالألف بل تشترك فيها الأصوات جميعًا ، ونعنى بهذه الظاهرة مرور الهواء من الرئتين مارًّا بالحنجرة والحلق والفم ولكنه يتعدل ويتكيف بطريق ما فى مكان ما حسب كل صوت من الأصوات المختلفة، فقد يقف فى الحنجرة ثم ينطلق فجأة ، فتكون الهمزة ، وقد يكون التعديل فى الحلق فتخرج الأصوات الحلقية ، وقد يكون فى الفم فتخرج أصوات كثيرة ، منها الحركات ومن ضمنها الألف بالطبع .

ويعتذر بعض الباحثين المحدثين لابن جنى ويفسر كلامه على أنه ضرب من الترادف . يقول هؤلاء الباحثون : «إن ذكر الألف بعد الهمزة من باب الترادف . فكأنه قال : الهمزة التى هى ألف» وأغلب الظن أن فى هذا التفسير ضربًا من التسامح ، إذ يناقضه وجود حرف العطف (وهو الواو) بين الهمزة والألف فى الترتيب الذى ساقه ابن جنى فى ترتيبه . والمعروف أن حرف العطف يقتضى المغايرة . أضف إلى هذا أن ابن جنى كثيرًا ما يتعرض للألف فى معرض الكلام على حروف المد ، ونشعر من كلامه هناك بأنه يعرف جيدًا الفرق بين هذه الحروف بوصفها حركات وبين الأصوات الصامتة . فبقى إذن الاعتراض على حاله ، وهو أن ابن جنى لم يكن دقيقًا فى وضع الألف فى هذه الألفباء، لأنها ألفباء الصوامت، كما خانه الحظ أيضا فى تحديد مخرجها .

والحق أن موضوع الهمزة والألف فى العربية يشكل صعوبة ظاهرة فى الدرس اللغوى عندهم، وقد خلط العلماء بينهما خلطًا واضحًا، وأتوا فيهما بمناقشات تتسم بالغموض وعدم الإدراك الحقيقى لطبيعة هذين الصوتين (انظر حديثنا عن الألف فى كتابنا دراسات فى علم اللغة) .

٦ – أما ترتيب بقية الأصوات فى ألفباء ابن جنى ، فهو ترتيب معقول ومقبول ، بل إن بعضها – كما فى حالة الفاء والباء والميم – مثلا – قد بلغ غاية فى الدقة . ولكن الذى يعكر الصفو على ابن جنى فى هذا الترتيب السابق هو نسبة بعض هذه الأصوات إلى مخارج نختلف معه فيها ، وسوف نقوم بتوضيح هذا الخلاف (وغيره) عند الكلام على الأصوات ووصفها صوتا صوتا ، كل فى موضعه الخاص به .

التقسيم الثالث : من حيث كيفية مرور الهواء :

هذا هو التقسيم الثالث والأخير للأصوات الصامتة . والمعايير التى ينبنى عليها هذا التقسيم تتمثل فى كيفية مرور الهواء من جهاز النطق عند إصدار الصوت المعين . يختلف الدارسون فيما بينهم اختلافا نسبيا فى تفاصيل هذا التقسيم وفى مصطلحاته ، وإن كانت المعايير عند الجميع متفقا عليها ومأخوذة فى الحسبان فى كل الحالات .

يرى بعضهم تصنيف الأصوات الصامتة من هذه الناحية إلى مجموعتين رئيسيتين : سمّوا إحداهما «الوقفات» stops والثانية «الممتدة» open .

المجموعة الأولى :

تنتظم هذه المجموعة كل الأصوات التى يحدث فى أثناء النطق بها وقوف الهواء وقوفا تاما فى نقطة من نقاط النطق فى الجهاز النطقى

بدءا من الحنجرة حتى الشفاه . فإن صاحب هذه الوقفات **انفجار سريع** مفاجئ بمعنى خروج الهواء منفجرا فجأة وبسرعة ، سميت «وقفات انفجارية» plosive stops ، وإن تسرّب الهواء **ببطء** محدثا احتكاكا friction، سميت «وقفات احتكاكية» fricative stops أو – وهو الأشهر – **الأصوات المركبة** offricative .

والوقفات الانفجارية الخالصة (أى بوصفها أنماطا لا أمثلة نطقية نوعية بحسب السياق أو اللغة المعينة ، وكان الانفجار انفجارا خالصا) لها وجود فى كل اللغات المعروفة ، وإن كانت مواضع نطقها تختلف فى القلة والكثرة من لغة إلى أخرى ، فلها – فى أقل تقدير – موضعان اثنان فى هذه اللغات ، هما موضع [p أو t] وموضع [k] ويزيد عدد مواضعها إلى ثلاثة أو أربعة فى كثير من اللغات ، وإن كانت اللغات ذوات ثلاثة المواضع أكثر انتشارا وعددا من اللغات التى تحظى بأربعة مواضع لنطق هذه الوقفات . ففى الإنجليزية والفرنسية والألمانية لها ثلاثة مواضع ، هى مواضع [p و t و k] ، ولها أربعة مواضع فى لغات أخرى ، منها لغة «الإسكيمو» سكان Greenland . وقليل ما هى أو نادرة تلك اللغات التى لها خمسة مواضع لنطق الوقفات الانفجارية الخالصة. من هذه اللغات **اللغة العربية**، ففيها الحنجرة للهمزة ، واللهاة للقاف وأقصى الحنك للكاف ، والأسنان واللثة للتاء والطاء والدال والضاد والشفتان للباء .

أما الوقفات الاحتكاكية أو الأصوات المركبة فلها وجود ملحوظ أيضا فى كثير من اللغات ، مع اختلاف مواضع نطقها نسبيا ، ومثالها النموذجى هو الصوت المركب الذى يرمز له بالرمز [dj] فى الكتابة

الصوتية . ومن صوره الجيم الفصيحة ، كما ينطقها المتخصصون ومجيدو قراءة القرآن الكريم فى مصر .

ويمكن ضم الأصوات الجانبية والأنفية ونوع من أصوات [r] إلى هذه المجموعة ، ولكن على وجه مخصوص وباعتبار معين ، ومن أمثلتها فى العربية اللام والميم والنون والراء ذات الصفة التكرارية بهذا الترتيب. وسيأتى تفصيل القول فى ذلك فيما بعد .

المجموعة الثانية :

تضم هذه المجموعة كل الصوامت التى يحدث فى أثناء النطق بها أن يمر الهواء ويتسرّب كليا أو جزئيا من منفذ من منافذ النطق ، وإن بصور مختلفة ، ومن هنا كانت تسميتها فى عمومها بالأصوات «الممتدة» open .

فإن مرَّ الهواء حال النطق من الفم من خلال منفذ ضيق نسبيا محدثا حفيفا أو احتكاكا مسموعا سميت الأصوات الصادرة حينئذ «الأصوات الاحتكاكية» fricatives . ومثالها فى العربية الفاء والثاء والذال إلخ . وهذه الفئة الاحتكاكية تمثل الجانب الأكبر والرئيسى من الأصوات «الممتدة» .

ومعروف أن مواضع نطق «الاحتكاكيات» أكثر عددا من مواضع نطق الوقفات الخالصة، كما أنها تتوزع على مناطق أوسع من صاحبتها، فلها فى الإنجليزية مثلا خمسة مواضع هى مواضع [h , ʃ , s , θ , đ] وكذلك الألمانية فيها مواضع [h , x , ʃ , s , ç]، فى حين أن هاتين اللغتين لهما ثلاثة مواضع فقط فى حال «الوقفات» . أما فى اللغة العربية فلها سبعة

أو ثمانية مواضع احتكاكية هى مواضع الفاء والثاء وأختيها الذال والظاء، والزاى ومعها السين والصاد ، والشين وموضع الخاء وصاحبتها الغين ، والحاء ومعها العين ، ثم الهاء ، فهذه سبعة مواضع ويمكن عدّها ثمانية إذا خصصت للياء موضعا مستقلا على ما يرى بعضهم ، فى حين أنها (الياء) منسوبة إلى موضع الشين عند قوم آخرين، وهو وسط الحنك، وسمّى العرب القدامى هذين الصوتين ، مضمومًا إليهما الجيم المركبة الأصوات «الشجْرية» نسبة إلى شجْر الفم ، فهذه سبعة مواضع أو ثمانية فى مقابل خمسة مواضع فقط للوقفات ، كما أشرنا إلى ذلك قبلا .

وهناك ما يسوِّغ ضم الأصوات الجانبية والأنفية ، من حيث كيفية مرور الهواء، إلى الأصوات «الممتدة» open ، وكذلك ما يسمى «الراء» الاحتكاكية fricative open أما الصوتان [w و y] فهما من أفراد هذه المجموعة الممتدة عند قوم وهما أنصاف حركات عند فريق آخر .

تعقيب :

تبين لنا من هذا التصنيف العام أن هناك أصواتا يمكن نسبتها إلى المجموعتين كلتيهما أو إلى إحداهما . وهذا يقتضى منا تفسير هذه النسبة أو تلك ، حتى يتضح الأمر للقارئ غير المتخصص . هذه الأصوات ذات الخصوصيات يمكن تصنيفها إلى فئتين فرعيتين .

الفئة الأولى : الأصوات الجانبية والأنفية وصوت [r] .

الأصوات الجانبية [L] ومثالها فى العربية اللام ، والأنفية [n,m] ومثالهما فى العربية الميم والنون ، يمكن نسبتها جميعا إلى «الوقفات» وإلى الأصوات الممتدة معا. أما أنها وقفات فذلك لأن الهواء عند النطق بها

يقف وقوفا تاما فى موضع النطق المحدد لكل من هذه الثلاثة ، وأما أنها امتداديّات ، فذلك لأن الهواء فى أثناء الوقوف يخرج حرّا طليقا ، من جانبى الفم فى حال الأصوات الجانبية ومن الأنف فى حال الأصوات الأنفية .

وينبغى أن نشير إلى أننا هنا نتكلم عن أنماط من الأصوات ، لا عن الصور النطقية المتنوعة لكل نمط . وللأصوات الجانبية أكثر من صورة نطقية فى اللغات المختلفة بل ربما فى اللغة الواحدة (وربما لا وجود لها أصلا فى بعض اللغات ، كما هو الحال فى اللغة اليابانية) ، ولكن هذه الصور ، مع ذلك ، ما تزال فى جملتها تشترك فى الصفات المميّزة للنمط الأساسى ، وهى «جانبية» مرور الهواء عند النطق بها ، ومن ثم كانت تسميتها جميعا بالأصوات الجانبية .

وكذلك الحال فى الأصوات الأنفية . لها أكثر من صورة نطقية ، ولكنها جميعا تتفق فى الخاصة الأساسية للنمط الذى تمثله ، وهى مرور الهواء من الأنف ، ومن ثم كان إطلاق المصطلح «أنفية» على النمط وصوره المنوّعة .

أما النمط [r] ، ومثاله الراء فى اللغة العربية ، فقد اضطرب الدارسون فى وصف حاله اضطراب نطقه وأداء صوره الكثيرة ؛ ذلك لأن [r] (وهو الرمز العام للنمط كله) تتنوع صور نطقه تنوعًا كبيرا من حيث وقفات الهواء ومن حيث كيفية خروج هذا الهواء عند النطق ، بل ومن حيث مواضع النطق كذلك . وذلك بالطبع راجع إلى العادات النطقية فى اللغات المختلفة ، وإلى عادات الناطقين باللغة المعيّنة .

ومع ذلك ، انتهى النظر العلمى عند الكثيرين إلى أن هذا النمط بصوره المتعددة ما زال يفصح عن شبه **بالوقفات والامتداديات** بوجه من الوجوه ، وإن كان بعض هذه الصور أقرب إلى إطار الوقفات ، وبعضها الآخر يرشح نفسه للانضمام إلى الامتداديات . ومن هنا جاء تصنيفهم **الفرعى** لصور هذا النمط إلى صنفين بقصد التمييز الدقيق بينهما من حيث كيفية مرور الهواء ، سمّوا أحدهما بأفراده «**الوقفة المتقطعة**» intermittent stop وثانيهما «**الممتد الاحتكاكى**» fricative open فالخاصة المميزة للصنف الأول هى **الوقفات المتقطعة** للهواء ، وللثانى هى **امتداد الهواء** ونفاذه مع إحداث نوع من **الاحتكاك**.

ومن الجدير بالذكر أن الراء العربية بصورها المختلفة تحسب **عندنا** من **الوقفات المتقطعة** ، وهو ما رآه علماء العربية عند وصفهم لهذا الصوت ، حيث سموا هذا النمط «صوت التكرار أو الصوت المكرّر» ، إشارة إلى تكرار ضربات اللسان فى مواضع النطق وتكرار خروج الهواء . كما نلاحظ أيضا أن هؤلاء العلماء العرب اضطربوا فى وصف الراء وفى نسبته إلى مجموعة معينة ، اضطراب المحدثين فى هذا الشأن ، على ما سيأتى بيانه .

ولنا أن نقرر فى النهاية أن هذه الأنماط الأربعة [r - n - m - l] بوصفها **صوامت** ، لها شبه كبير **بالحركات** ، إذ هى مثلها فى حرية مرور الهواء ، وإن كانت هذه الحرية من جانبى الفم فى حالة [l] ومن الأنف فى [m و n] **ومن الفم نفسه** فى حال الحركات . وكذلك [r] لها ضرب من الشبه بالحركات ، بسبب مرور الهواء من الفم ، وإن جاء ذلك متقطعا (فى

الراءات الوقفات المتقطعة) ، وبسبب نفاذ الهواء مع شيء من الاحتكاك (في الراءات الممتدة الاحتكاكية) .

فالشبه بين الثلاثة الأولى [n - m - l] والحركات يتمثل في حرية مرور الهواء، وإن كان نفاذه بحرية تامة من جهات مختلفة ، وبين الراءات والحركات في مطلق هذه الحرية ، وإن كان نفاذ الهواء متقطعا أو ممتدا مع الاحتكاك يظهر أثر هذه الحرية الكاملة أو النسبية في قوة الوضوح السمعي sonority لهذه الأصوات، وهي خاصة تمتاز بها الحركات من كل أصوات اللغة . ولهذا أطلقوا على هذه الأصوات الأربعة المصطلح «أشباه الحركات» vowel - like consonants .

الفئة الثانية = [w و y] :

هذان الصوتان أو النمطان من الأصوات . ويقابلهما «الواو – الياء» في اللغة العربية ، لهما وظيفتان في النسيج اللغوي في كثير من اللغات ، فهما في العربية مثلا حركتان خالصتان في نحو «أدعو – أرمي» حيث تحسب الواو ضمة طويلة ، والياء كسرة طويلة . والحكم بحركتيّهما في مثل هذه الحالة لا خلاف فيه .

أما في نحو «وجد – يجد» فهما يؤديان وظيفة الأصوات الصامتة بلا فرق، ولكن طريقة نطقهما تقربهما من الأصوات «الممتدة» حيث ينفذ الهواء محدثا نوعا خفيفا من الاحتكاك ، كما تقربهما من الحركات، بسبب مرور هوائهما بشيء من الحرية عند النطق بهما .

ومن ثم كان الحكم عليهما بأنهما من الأصوات «الممتدة» open بصفة عامة، كما جاز الحكم عليهما بأنهما أنصاف حركات semi-vowels .

وفى هذه الحالة الأخيرة يجوز حسبانهما **أنصاف صوامت** أيضا ، نظرا لما يقومان به من وظيفة فى البناء اللغوى ، ولكن المصطلح الأشهر هو كونهما : أنصاف حركات . (انظر تفصيل القول فى ذلك فى الباب الثانى).

رأى علماء العربية :

للعرب رأى يتفق فى مجمله مع ما قررنا سابقا من تصنيف الأصوات الصامتة ، بحسب كيفية مرور الهواء عند النطق بها .

بدأ هذه القصة شيخ النحاة «سيبويه» وتبعه فى ذلك تلاميذه وخالفوه فيما بعد، دون خلاف يذكر، أو بترديد كلامه بحرفه أو بمحاولة تفسيره . يصنف سيبويه الأصوات الصامتة (الحروف فى اصطلاحهم) إلى صنفين رئيسيين . سمىّ **أولهما** : الحروف (الأصوات) **الشديدة** ، **والثانى** : الحروف (الأصوات) **الرخوة**. يقول فى ذلك :

«ومن الحروف الشديد، وهو الذى **يمنع الصوت أن يجرى فيه** . وهو الهمزة والقاف والكاف والغين والخاء والشين والصاد **والضاد** والزاى والسين والظاء والثاء والذال والفاء . وذلك إذا الطسّ وانقضّ وأشباه ذلك **أجريت فيه الصوت** إن شئت» .

وفى رأينا أن المصطلح «الشديد» يعنى الوقفة stop، وأن أفراد المجموعة الأولى «وقفات» ، حيث يقف الهواء عند النطق بها وقوفا تاما، أو بعبارة سيبويه نفسه «الشديد هو الذى يمنع الصوت (الهواء) أن **يجرى فيه**» . أما ضم الجيم (الفصيحة) إلى هذه المجموعة فله مسوّغ ، وإن جاء وقوف الهواء عند النطق بها مصحوبًا باحتكاك خفيف ، نتيجة مرور شىء من الهواء بطيئا من منافذه .

وكذلك تفسّر (الحروف) الرخوة فى كلام سيبويه بالأصوات **الاحتكاكية** fricatives ، نظرا للاحتكاك الذى يحدثه الهواء عند الخروج من منافذه الضيقة نسبيا ، أو كما قال هو «**أجريت فيه الصوت**» (الهواء) إن شئت. أما ذكره صوت **الضاد** فى مجموعة الاحتكاكيات فقد أثار ويثير جدلاً طويلا حول طبيعة هذا الصوت . وسنأتى برأينا فى هذه القضية بالتفصيل فى الباب الثانى ، فانظره هناك .

وتفسيرنا لمصطلحى «الشديد» و«الرخو» بالوقفة والاحتكاكى، يعنى بكل وضوح **اتفاق** صُنع سيبويه فى مجمله اتفاقا يكاد يكون تاما مع ما جرى عليه العمل من رجال الأصوات عند تصنيف الأصوات ، بقطع النظر عن اللغة المعيّنة . فلله دره ، وما أعمق تفكيره . والفرق – إن كان هناك فرق – هو أن سيبويه لم يلتف إلى الحدث الثانى المصاحب للوقفة (وقوف الهواء) **وهو الانفجار**؛ إذ من المعروف أن كل وقفة خالصة يعقبها انفجار سريع مفاجئ . ومن ثم كانت تسمية أصوات المجموعة **الأولى** «بالوقفات الانفجارية» plosive stops .

ومما يؤكد عمق النظر عند الرجل ونفاذ بصيرته أنه لم يذكر أفرادًا معينة من الأصوات فى قائمة المجوعتين السابقتين ، وإنما أفرد لها حديثا خاصا ، على أساس ما لها من خواصّ لا ترشحها للانضمام إلى أىّ من القبيلين دون الآخر انضماما كاملا .

هذه الأصوات هى : اللام والميم والنون والراء – الواو والياء ،ثم العين (وهى حالة خاصة بالعربية) .

وتأسيسًا على ما قرره سيبويه فى شأن هذه الأصوات من حيث كيفية مرور الهواء عند النطق بها ، نصنفها إلى فئتين . وهذا النهج نفسه يطابق ما فعله رجال علم الأصوات العام عند الحديث على ما يقابل هذه الأصوات فى اللغات المختلفة. ثم نتبع ذلك بالإشارة إلى وضع صوت «العين» ؛ إذ هو يمثل حالة خاصة عند علماء العربية، وفى مقدمتهم «سيبويه» .

الفئة الأولى - اللام والميم والنون (والراء) :

وصف سيبويه اللام بأنه حرف شديد، أى : وقفة (غير انفجارية) ، حيث يقف الهواء عند موضع النطق بها ، ويخرج حرا طليقا من «مستدق اللسان» أى من جانبه أو من جانبيه معا ، كما قرر ابن جنى .

وكذلك الميم والنون وصفهما بأنهما حرفان شديدان أى وقفتان (غير انفجاريتين) يصحبهما مرور الهواء حرا طليقا من الأنف . فهذه الأصوات الثلاثة إذن لها نسب قريب بالوقفات stop ، وصلة واضحة بالأصوات الممتدة open . ووهم بعضهم فى تفسير هذه الصلة الأخيرة واعتمدها شبهًا بالاحتكاكيات fricative . إنها تشبه «الممتدة» نعم فى مطلق حرية مرور الهواء ، ولكنها لا تنسب إلى الاحتكاكيات وليست مثلها ، إذ إن الهواء فى نطق الاحتكاكيات لا يخرج حرا طليقا وإنما ينفذ من منفذ ضيق من الفم ، محدثا احتكاكا أى حفيفا مسموعا ، فى حين أن هواء اللام والميم والنون -- بعد الوقفة -- يخرج حرًا طليقا، وإن من جهات مختلفة : من جانبى الفم فى حال اللام ، فهى جانبية ، ومن الأنف فى حالة الميم والنون ، فهما من الأصوات الأنفية .

أما الراء العربية وهو صوت التكرار فقد اضطرب اللغويون العرب فى وصفه من حيث كيفية مرور الهواء ، ومن حيث نسبته إلى أى من المجموعتين الرئيسيتين : الوقفات والممتدة بصفة عامة ، stops و open. ومع ذلك ، مازال الشبه بين هذا الصوت وأفراد المجموعتين ظاهرا ، نظرا لوقوف الهواء تارة وخروجه ممتدا تارة أخرى .

هذا التأرجح فى الخواص والصفات ، كان سببا من أسباب تسمية بعضهم الأصوات الثلاثة بالأصوات «البينية» أو المتوسطة بين الشدة والرخاوة . وضموا إليها العين وجمعوها فى قولهم «لن عمر وأضاف بعضهم إليها الواو والياء ، على ما يأتى تفصيل القول فى ذلك فى موضعه من الباب الثانى .

الفئة الثانية = الواو والياء :

وصفهما سيبويه بقوله: «ومنها (الحروف» اللّينة ، وهى الواو والياء؛ لأن مخْرجهما يتّسع لهواء الصوت أشدّ من اتساع غيرهما كقولك: «وَأْىٌ».. وإن شئت أجريت الصوت ومددت». لم يبيّن سيبويه (ولا غيره) المقصود بدقة بالأصوات «الليّنة» (أو أصوات اللين) .أيقصد الواو والياء بصفتهما العامة ، وهما كونهما حركات خالصة ، كما فى أدعو وأرمى؛ وكونهما من أنصاف الحركات semi-vowels ، كما فى وعد يعد ، أم يقصد الحالة الثانية فقط ؟ . كلامه فى ظاهره يوحى بجواز الأمرين ، لانطباق وصف هوائهما عند النطق بقوله: «لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشدّ من اتساع غيرها» على الحالتين (وإن بصورتين مختلفتين). وأغلب الظن عندنا أنه يعنى الواو والياء بوصفهما «أنصاف حركات» بدليل

المثال الذى أورده لتوضيح حالهما ، حيث جاء كل من الصوتين متبوعا بحركة ، وهذا يخرجها – بلا شك – من صنف الحركات ، ويؤكد كونهما أنصاف حركات (أو أنصاف صوامت) .

ومهمايكن الأمر فقد لحظ سيبويه خاصة الصوتين إذا قيسا بغيرهما من الأصوات . فهما على كل حال يقربان من الأصوات الممتدة open ، كما يقربان من الحركات . والفيصل فى الأمر هو النظر إليهما من حيث وظائفهما فى النسيج اللغوى للغة العربية .

ويأتى صوت «العين» فى خاتمة المطاف ، حيث يصفه سيبويه بقوله: «وأما العين فبين الرخوة والشديدة ، تصل إلى الترديد فيها لشبهها بالحاء» . والحكم «ببينيَّة» صوت العين حكم غير دقيق فى النظر الحديث ، إذ هو صوت احتكاكى دون شك ، وإن كان ينماز بأنه أقل الأصوات الاحتكاكية احتكاكا . ولعل هذا هو السرّ الذى قاد سيبويه وغيره إلى هذا الحكم[1] .

هكذا جاء تصنيف سيبويه لأصوات العربية من حيث كيفية مرور الهواء عند النطق بها . وهو تصنيف دقيق فى مجمله ، ويأتى على وفق المعايير العالمية المأخوذ بها عند تصنيف اللغات عموما من هذه الناحية. وجاء مخالفوه فى القديم وتبعوه فى أساسيات ما قرر مع تغيير خفيف ونحا بعضهم نحو إجمال ما فصّل الشيخ ، وأتوا بتصنيف ثلاثى عام ينتظم كل ما ذكر فى عبارات محدّدة واضحة . من هؤلاء ابن جنى الذى يقول فى هذا الشأن : «وللحروف انقسام آخر إلى الشدة والرخاوة

(١) انظر «الكتاب» لسيبويه ج٢ ص٤٠٥ وما بعدها لمراجعة تصنيف الأصوات العربية .

وما بينهما. فالشديدة ثمانية أحرف . وهى الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والدال والتاء والباء، ويجمعهما قولك (أجدت طبقك) و(أجدك طبقت) . والحروف التى بين الشديدة والرخوة ثمانية أيضا، وهى الألف والعين والياء واللام والنون والراء والميم والواو. ويجمعها فى اللفظ (لم يرْوِ عنّا) ، وإن شئت قلت (لم يروّعنا) وإن شئت قلت (لم يرْعونا) . وما سوى هذه الحروف والتى قبلها هى الرخوة» .

فابن جنى يتابع شيخه فى أساس التصنيف ، ولكنه يختلف معه فى أمرين:

١ – ذكره للألف ضمن الأصوات الصامتة (البينية – بعبارته) فى حين أن الألف باتفاق حركة خالصة (الفتحة الطويلة) . وهذا ما يفهم صراحة من كلام سيبويه ، حيث عبر عنها بقوله : «ومنها الهاوى وهو حرف لين اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو؛ لأنك قد تضم شفتيك فى الواو وترفع فى الياء لسانك قبل الحنك وهى الألف وهذه الثلاثة أخفى (أظهر) الحروف لاتساع مخرجها وأخفاهن وأوسعهن مخرجا الألف ... » .

٢ – جمّع ابن جنى أصواتا (حروفا) متأرجحة فى سماتها من حيث كيفية مرور الهواء وضمها بعضها إلى بعض فى سلّة واحدة ، وسمّاها صراحة الأصوات البينية أو المتوسطة بين الشديدة والرخوة (لم يروعنا ، أو .. إلخ) ، فى حين أن سيبويه اكتفى بالإشارة إلى هذه السمات المتأرجحة ، دون نسبتها إلى هذه البينية أو التوسط ، باستثناء صوت العين الذى نعته صراحة بأنه بين الشديدة والرخوة . وهذا الخلاف

بين الرجلين فى هذه النقطة أثار جدلا بين المحدثين حول نسبة هذه الأصوات المتفردة فى سماتها : أهى متوسطة بين الشديدة والرخوة كما قال ابن جنى ، أم بين الصوامت جميعا والحركات، على ما نفهم نحن ؟ (انظر تفصيل القول فى ذلك فى الباب الثانى من هذا الكتاب).

وبهذه المناسبة لابد لنا من الإشارة إلى أمرين مهمين ، وقع فيهما تجاوز بل خطأ من بعض الدارسين المحدثين . والأمران كلاهما يتعلقان بتوظيف المصطلحات عند الإشارة إلى الأصوات «الشديدة» وبتفسير «الشدة أو الشديد» فى كلام سيبويه وغيره فى القديم .

الأمـر الأول :

جرى العرف الصوتى الحديث على الإشارة إلى أصوات المجموعة الأولى المسماة بالشديدة عند سيبويه «(الهمزة – القاف – الكاف .. إلخ) بالمصطلح «**وقفات**» stops أحيانا وبالمصطلح **انفجارية** plosives فى أغلب الأحيان ، وفقا للأخذ بظاهرة وقوف الهواء أو انفجاره ، وكل من الاستعمالين صحيح وإن بنظرتين مختلفتين ولكن يشوبهما القصور فى بيان الحقيقة ، وإن كان الأول – مصطلحا – أعم ، كما سنرى بعد . والصحيح فى رأينا استعمال المصطلحين معًا ، مكوّنين مصطلحًا واحد ينبئ عن طبيعة هذه الأصوات من حيث كيفية مرور الهواء عند النطق بها ، وهو «**الوقفات الانفجارية**» plosive stops .

الأمـر الثانى :

من اللافت للنظر أن جل الدارسين العرب المحدثين (إن لم يكونوا جميعا) يفسرون مصطلح سيبويه «شديد» بالانفجارى و«الشدة»

بالانفجار فقط ، ومن ثم واجهتهم صعوبة ظاهرة فى هذا المجال . تتمثل فى تفسير وضع سيبويه للجيم ضمن هذه المجموعة الشديدة (الانفجارية فى رأيهم) ، إذ من الثابت لدينا جميعا أن الجيم الفصيحة صوت مركب ، أى مركب من عنصرين متصلين يحدثان فى موقع نطقى واحد ، مكوِّنين معا وحدة متكاملة . هذه الوحدة المتكاملة تتمثل فى وقفة متلوة باحتكاك فى ذات الموقع ، وهى ما أشرنا إليها سابقا بالوقفة الاحتكاكية . وصوّرناها بالرمز [dj] وهذا الصوت المركب هو الذى نسمعه من مجيدى قراءة القرآن فى مصر العربية ، وهو ما اصطلح على تسميته حديثا بالجيم الفصيحة ، للتفريق بينه وبين الصور النطقية الأخرى للجيم فى الألسن العربية قديما وحديثا . ومن ثم لجأ هؤلاء المفسرون «للشديد» فى كلام سيبويه «بالانفجارى» إلى حسبان الجيم فى قائمة سيبويه المذكورة تلك الصورة النطقية الأخرى الموسومة حديثا (بقصد التفريق فقط) بالجيم القاهرية . وهذه الصورة الأخيرة انفجارية لاشك فى ذلك ، وهى المشار إليها فى الدرس الصوتى العام بالرمز [g] (كما فى نحو get فى الإنجليزية . والأولى بل الصحيح فى نظرنا تفسير «الشدة» فى كلام سيبويه «بالوقفة» ، ونعنى بذلك وقوف الهواء وقفة ما عند النطق بالصوت المعين . وهذا يصدق على الجيم الفصيحة [dj] بصورة جزئية، إذ يبدأ نطق هذا الصوت بوقفة منتهية باحتكاك مباشر فيأتى الصوت مركبا. فكأن سيبويه أحس بهذا الجزء من النطق (وهو الوقفة) ولم يلتفت إلى الاحتكاك المتمم لنطق الصوت، أو لعله لم يدركه .

وتفسير الشدة بالوقفة هو **تفسيرنا نحن**، وقد وفقنا إليه بعد إمعان نظر وتدبر كبيرين، وبعد أن كنا من مشايعى المفسرين للشدة بالانفجار. وهذا التفسير الذى رأينا ذو أهمية بالغة . إنه **أولا** يصحح خطأ شائعًا ويؤكد دقة الرجل (سيبويه) وعمق نظره ، وهو **ثانيا** يوضح لنا ما كان من الصعب علينا تذوقه من وصف سيبويه «للام والنون والميم والراء» بالشدة أى الوقفة إذ إن هذه الأصوات الأربعة تتسم بوقوف الهواء عند نطقها ، وقوفا كاملا فى حالة اللام والميم والنون ، ومتقطعا فى حالة الراء كما سبق أن بيّنا .

والقول بأن الجيم فى قائمة سيبويه هى . الجيم القاهرية [g] قول غير دقيق، إذ إن هذا الصوت عده سيبويه (فى جملة كلامه) صوتًا غير مستحسن . وأشار إليه بقوله «والجيم التى كالكاف» .. ومعروف أن لا فرق بين هذا الصوت والكاف إلا الجهر فى الأول والهمس فى الثانى . ومن المحتمل أن يكون لهذا الصوت وجود فى العربية قديما ، بل يقال إنه الأصل فيها ثم أصابه شىء من التطور [g - dj]، واستقر الثانى في الفصحى ، وبقى الأول [g] فى بعض اللهجات قديما وحديثا، وهو الأصل فى اللغات السامية جميعا ، على ما نعلم (راجع قصة الجيم بالتفصيل فى الباب الثانى) .

مسلكنا فى التصنيف :

بعد ما عرضنا من تصنيف الأصوات الصامتة أو تقسيمها من حيث كيفية مرور الهواء عند النطق بها **بمعايير عالمية**، و**بمعايير عربية موروثة**، رأينا أن نقدم تصنيفا آخر أيسر فى التناول والاستيعاب من

التصنيف العالمى ، وأشهر فى التطبيق فى وقتنا الحاضر مما أتى به علماء العربية . وينبغى أن يُعلم أن تصنيفنا هذا المختار لا يخرج فى جملته عن المعايير المقررة عند الفريقين المذكورين مجتمعين أو منفردين. كل الذى أردناه من تصنيفنا هو : أولا محاولة فض الاشتباك بين مجموعات أو فئات الأصوات الصامتة التى تشترك فى بعض الصفات وتختلف فى صفات أخرى . وأردنا ثانيا تخصيص موقع مستقل لكل فئة أو مجموعة ، وفقا لأبرز وأوضح الظواهر التى تنماز بها من غيرها ، وإن اشتركت معها فى ظواهر أخرى . وهذا التصنيف على كل حال خاص بأصوات العربية الفصيحة .

تنقسم الأصوات الصامتة فى العربية من حيث كيفية مرور الهواء عند النطق بها إلى المجموعات الآتية ، بعدُ ، آخذين فى الحسبان كيفيات مرور هذا الهواء ، وما يحدث له من عوائق أو موانع تمنع خروجه منعا تاما أو جزئيا ، أو ما يحدث له من تغيّر أو انحراف فيخرج من جانبى الفم أو من الأنف مثلا . ويجب أن ننبه أيضا إلى أن هذا التصنيف تصنيف للأنماط لا للأمثلة النطقية الفعلية لأفراد كل نمط .

تنقسم الأصوات الصامتة فى العربية ، كما نخبرها اليوم من الزاوية المذكورة (كيفية مرور الهواء) إلى المجموعات الآتية :

١- الوقفات الانفجارية plosive stops

وهى : الهمزة والقاف والكاف والدال والضاد والتاء والطاء والباء = ٨.

وهى ما وصفها العرب فى القديم بالأصوات «الشديدة» ، وقد فسرنا الشدة بالوقفة وأضفنا إليها صفة الانفجار ، تحقيقا لكيفيات نطقها .

وقد ضمّ إليها القدامى صوت «الجيم» وأخرجوا منها صوت «الضاد» وعدوها من الأصوات الاحتكاكية (الرخوة) ، وقد أشرنا مثلا (وسنشير إلى ذلك فيما بعد بالتفصيل) إلى أن لهم مسوّغا مقبولا فى حال «الجيم». أما نزع الضاد من هذه المجموعة فله قصة طويلة سنأتى عليها فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

٢ - الأصوات الاحتكاكية fricatives

وهى : الهاء والعين والحاء والغين والخاء والشين والصاد والسين والزاى والظاء والذال والثاء والفاء = ١٣ .

وقد سماها العرب الأصوات «الرخوة» ، وضموا إليها الضاد وأخرجوا منها العين . ولهم فى العين وجهة نظر يمكن تفسيرها على وجه معيّن .

٣ - الوقفات الاحتكاكية fricative stops

والمشهور تسميتها بالأصوات المركبة وهى فى العربية صوت وحيد وهو الجيم = ١ .

وقد ضمها العرب إلى قائمة الأصوات «الشديدة» أى الوقفات باصطلاحنا، كما سبق ذكره .

٤ - أصوات التكرار rolled

وهى فى العربية صوت الراء فقط ، وقد يسمى صوت التكرار = ١ .

٥ - الأصوات الجانبية lateral

وهى صوت اللام وحده فى العربية =١ .

٦ - الأصوات الأنفية nasal

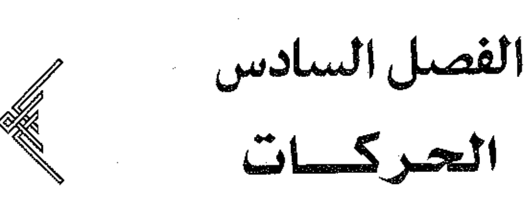
وهى فى العربية الميم والنون = ٢ .

٧ - أنصاف الحركات semi - vowels

وهى فى العربية الواو والياء فى نحو وعد – يعد = ٢ .

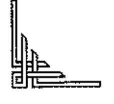
فالأصوات **الصامتة** consonants (مضموما إليها الواو والياء المذكورتين) ثمانية وعشرون فى اللغة العربية . وعدها بعض العرب فى القديم تسعة وعشرين، بضم الألف إليها ، وهو غير دقيق أو خطأ صرف من وجهة نظرنا ، كما أفردوا للأصوات فى حديثا مستقلا ، وقد ضمها بعضهم فى قائمة واحدة وسمّوها (أو معظمها بدون الواو والياء) الأصوات البينية أو المتوسطة ، ولهم فى ذلك وجهة نظر ، يسوّغها تصورهم الخاص بطبيعة هذه الأصوات .





الفصل السادس
الحركــات









الفصل السادس

الحركـــات

الحركات vowels هى القسيم الثانى الرئيسى لأصوات اللغة . ويمكن تعرّف الحركات بمجموعة من الخواص التى أشرنا إلى مجملها سابقا عند تصنيف الأصوات إلى مجموعتيها الرئيستين (الصوامت والصوائت = الحركات) والتى نزيدها بيانا فى هذا السياق .

تنماز الحركات من غيرها من الأصوات بالخواص الآتية :

١ - مرور الهواء من الفم حرا طليقا فى أثناء النطق بها ، دون عائق أو مانع يقطعه أو ينحو به نحو منافذ أخرى كجانبى الفم أو الأنف ، أو دون تضييق لمجراه فيحدث احتكاكا مسموعا . وتختلف الحركات نفسها فى هذه الحرية المطلقة . فقد لوحظ أن الحركة [a] (وتقع الفتحة العربية فى إطارها) هى ذات النصيب الأوفى من هذه الحرية . ومن اللافت للنظر أن ابن جنى عند حديثه عن الألف (وهو الفتحة الطويلة) قد أدرك هذه الخاصة ، حيث أشار إلى «**اتساع مخرجه**» وخروج الهواء ممتدا حتى ينفد .

٢ - الحركات غالبا ما تكون مجهورة فى كل اللغات ، وربما يقع بعضها مهموسًا فى بعض السياقات فى بعض اللغات ، على ما

يرى قوم من الدارسين ، وإن كنا لم نلحظ هذ الهمس للحركات فى اللغة العربية .

٣ – الحركات أقوى الأصوات وضوحًا فى السمع most sonorious ، نتيجة للخاصتين السابقتين ، والأولى منهما بوجه خاص . وتختلف الحركات فيما بينها فى هذه الخاصة . فأقوى الحركات وأشدّها وضوحا هى الحركة [a] ، ثم تقل هذه الدرجة بالتدريج (مع بقاء خاصة الوضوح) على الوجه التالى: [ɔ و æ – o و e – u و i] بهذا الترتيب . (انظر الحركات المعيارية فيما بعد) .

ويزيد Heffner (فى كتابه General Phonetics) الأمر بيانا لخاصة الوضوح هذه بالنسبة لأصوات اللغة **جميعا** (صوامت وحركات) ، فيرتبها تصاعديا فى درجة الوضوح على الوجه التالى :

أقل الأصوات وضوحا فى السمع هى الأصوات **المهموسة** (من أى فئة من فئات الأصوات) ، مثل [h, s, f و k, t, p] ، ثم تزيد درجة الوضوح بالتدريج نسبيا حتى يصل إلى النهاية هكذا :

١ – الأصوات **المجهورة** مثل [b , d , g و z , v] .

٢ – الأصوات الأنفية والجانبية [m , n , l] . ويضم إلى هذه المجموعة الصوت المرموز إليه فى الكتابة الصوتية الدولية بالرمز [ʃ] ، ومثاله فى العربية صوت التفشّى وهو الشين .

٣ – أصوات [r] ومنها الراء فى العربية .

٤ – الحركات وهى نفسها متدرجة فى قوة الوضوح السمعى ، على الوجه التالى تصاعديًا أيضا : [a - æ , ɔ - e , o - i, u] .

٤ – الحركات وظيفيا (لا نطقا فعليا) **مقطعية** syllabic ، بمعنى أنها أشدّ مكوّنات المقطع وضوحا فى السمع ، أو أنها العنصر الذى يقطع نبضات النفس فى مسيرة نطق المقطع .

وقد لاحظ بعض الدارسين أن بعض الأصوات **الصامتة** تحسب مقطعية أيضا فى بعض اللغات . وهذه الأصوات بالتحديد هى : [n,m - l - r] ، بهذا الترتيب، من حيث كثرة أو قلة ورودها بهذه الصفة طبقا لسياقاتها فى هذه اللغات .

ومعنى هذا أن الحركات **دائما** مقطعية ، وأن الأصوات الأربعة المذكورة قد تكون مقطعية وغيرمقطعية nonsyllabic طبقا للسياق فى اللغة المعينة [y,w] فلهما حالات **خاصة**. هما مقطعيان فى حالات **معينة** وغير مقطعيات فى حالات أخرى . فهما مقطعيان إذا كانتا **حركتين** أو عنصرين من **حركة** مزدوجة (كما فى بعض اللغات كالانجليزية) ، وهما غير مقطعيين إذا قاما بوظيفة الأصوات الصامته أى : عند كونهما أنصاف حركات semi - vowels، وبقية الأصوات (الصامتة) غير ما ذكر ليست مقطعية إذ هى فى مجموعها ليست ذات وضوح سمعى يؤهلها لهذه الوظيفة .

وللحركات نصيب من النظر والدرس عند علماء العربية ، وإن لم يمنحوها اهتماما يعدل أهميتها ووظيفتها فى البناء اللغوى ، وبخاصة فيما يتعلق بالحركات القصيرة (ـَـــِـــُـ) .

ولكننا مع ذلك ، لا ننفى معرفتهم بها وإدراكهم (نوع إدراك) بحقيقتها وخواصّها نطقا ووظيفة .. يتبين لنا ذلك من تلك الإشارات الجيّدة المتناثرة هنا وهناك فى أعمالهم عند معالجة أصوات لغتهم . من أهم هذه الإشارات فى سياقنا هذا ما يلى :

١ – قول ابن جنى، وإنما سميت الحركة بذلك «لأنها تحرك الحرف أى تقلقله». وهذه خاصية نطقية للحركات قصيرها وطويلها على حدّ سواء.

٢ – إشارة أبى الأسود الدؤلى إلى خاصة مميّزة للحركات القصار (الفتحة والكسرة والضمة) عندما طلب إليه أن يضع علامات للشكل لضبط الكلام خوفا على كتاب الله من اللحن والتحريف . قال الشيخ بعدما فكّر وتدبر : «سأقرأ القرآن فإذا فتحت شفتىّ بالحرف فضع نقطة فوقه ، وإن كسرتها فضع نقطة تحته، وإن ضممت شفتى فضع نقطة فوقه عن شماله». ومعلوم أن وضع الشفاه خاصة من الخواص التى تنماز بها الحركات من غيرها من الأصوات، بل قل، إنها – فى الوقت نفسه – معيار لتصنيف الحركات إلى أنواعها المختلفة . فقد أدرك هذا العبقرى فى هذا الزمن السحيق هذا المعنى، حيث ميّز الفتحة بفتح الشفاه والكسرة بكسرها وانفراجها والضمة بضمها . ومن هنا جاءت التسمية البارعة لهذه الحركات : الفتحة والكسرة والضمة ، وفقا لهذا المعيار العام الذى تصنف على أساسه أنواع الحركات أو أنماطها، وهو وضع الشفاه .

٣ – كثرة الحديث من الجميع عن **حروف المد** ، وهى الحركات الطويلة بالاصطلاح الحاضر ، ووصفوا كيفيات نطقها وبينوا دورها فى بناء الكلام.

وأشار ابن جنى إلى كيفيات نطقها بقوله : «فإن اتسع مخرج الحرف حتى لا ينقطع الصوت (الهواء) عن امتداده واستطالته استمر الصوت ممتدا حتى ينفد .. فيفضى حسيرا إلى مخرج الهمزة فينقطع بالضرورة عندها ، إذ لم يجد منقطعا فيما فوقها . والحروف التى اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو» .

ومعلوم أن ما يقال عن الحركات الطويلة ينطبق على الحركات القصيرة، لأنها بعضها ، كما قرروا هم ، فما يتصف به الكل ينطبق على الجزء ، فهما متماثلان فى الكيف مختلفان فى الكم فقط duration .

٤ – أكّد هذه العلاقة «الكلية – الجزئية» شيخهم الخليل بن أحمد ، عندما عمد إلى وضع العلامات المعروفة للحركات القصار (ـَـ ـِـ ـُـ) . أحسّ الرجل بذوقه الموسيقى أن الفتحة نصف الألف نطقا ، وأن الكسرة نصف الياء والضمة بعض الواو. فقرر بذكائه وعبقريته ، «لما كانت الحركات أبعاض حروف المدّ نطقا وجب أن تكون بعضها كتبا» . ومن ثم جاءت العلامات المذكورة ، وإن فاته وضعها فى صلب الكلمة ، الأمر الذى أدّى إلى صعوبات ومشكلات فى أداء الكلام ونطقه صحيحا صحة كاملة أحيانا .

★ ★ ★

ومهما يكن الأمر فإن الحركات فى اللغات المختلفة ، وإن اتفقت فيما بينها فى مجموعة من الخواص الأساسية مقارنة بالصوامت ، تلفّها بعض السمات التى تفرق بينها فى الكم والكيف ، الأمر الذى يؤدى إلى صعوبة استيعابها وأدائها أداء صحيحا ، وبخاصة عند الانتقال من لغة إلى أخرى . من هذه السمات أو الخواص النوعية ما يلى:

١ – الحركات قد تأتى مفردة ومزودجة فى بعض اللغات ، فى حين تخلو لغات أخرى من هذه الخاصة. ففى الإنجليزية مثلا تقع الحركات مفردة ومزدوجة كما فى نحو pay [pei] ، ولكنها فى العربية لا تكون إلا مفردة . والقول بأن الواو والياء فى نحو «حوض وبيت» يكوّنان عنصرا من حركة مزدوجة قول غير دقيق .

٢ – تختلف الحركات فى عددها من لغة إلى أخرى اختلافًا كبيرًا . وتستطيع أن تتأكد من ذلك حين تحاول المقارنة بين حركات اللغة العربية مثلا وحركات اللغة الإنجليزية . سوف يتبين لك حينئذ أن الحركات الأساسية فى اللغة العربية ثلاث أو ست إذا أخذت القصر والطول فى الحسبان ، فى حين أن الحركات الرئيسية فى اللغة الإنجليزية إحدى وعشرون حركة بل ثنتان وعشرون إذا ضممنا إليها ما يعرف بالحركة المركزية [ə] . ولا نعدو الحقيقة إذا قررنا أن حركات اللغة الواحدة تختلف فيما بينها من بيئة إلى أخرى . قارن مثلا حركات العربية حين يتكلم بها عراقى بحركات هذه اللغة ذاتها حين ينطق بها مصرى. سوف تجد أن هناك فروقًا دقيقة بين هذه الحركات فى الحالتين ، وسر هذا الخلاف يرجع إلى تأثر كل منهما بعادات النطق المحلية ، أى إلى تأثره بحركات لهجته الخاصة .

٣ – الحركات أصعب من الأصوات الصامتة فى النطق إلى حد ملحوظ. يظهر ذلك بخاصة عند الانتقال من اللغة القومية إلى اللغات الأجنبية . ولنا – نحن المصريين – خبرة فى ذلك . فكل منا واجه يومًا ما بعض الصعوبات فى نطق حركات اللغة الإنجليزية أو بعضها . وليس من الخطأ فى شيء أن نقول إن بعض المثقفين –

بل بعض المتخصصين فى اللغة الإنجليزية هنا - لا يزالون عاجزين عن نطق حركات هذه اللغة نطقًا سليمًا وبالطريقة التى تألفها آذان الإنجليز.

٤ - وبسبب الاختلاف الكبير فى الحركات من لغة إلى أخرى ، كثيرا ما يحدث الخطأ فى نطق حركات اللغات الأجنبية ، ويصبح هذا الخطأ عاملا من عوامل سوء الفهم ، وذلك لاختلاط الأمر على المتكلم عند النطق باللغات الأجنبية، حيث يقع فى وهم المماثلة بين حركات لغته التى ألفها واعتاد عليها ، وحركات هذه اللغات ، فيأتى نطقه غير دقيق ، الأمر الذى يوقع أصحاب هذه اللغات الأجنبية فى لبس وعدم فهم أحيانا .

٥ - الخطأ فى نطق الحركات أوضح منه وأظهر فى نطق الأصوات الصامتة، وذلك راجع إلى طبيعة الحركات . فهى أوضح فى السمع وأقوى إذا قيست بالأصوات الصامتة، ومن ثم كان الخطأ فى الحركات يبدو نابيًا فى الآذان غير مستساغ وغير مقبول .

لهذه الأسباب - ولأسباب علمية أخرى - اعتنى العلماء بالحركات فى الدراسات الصوتية عناية كبيرة ، وذلك لكثرة المشكلات الصوتية التى تتعلق بها إذا قيست بالأصوات الصامتة ، وليس معنى هذا أن الأصوات الصامتة ليست لها صعوباتها ومشكلاتها : إنها هى الأخرى لا تخلو من صعوبات ، ولكنها لا ترقى إلى الحركات فى هذا الشأن .

فالخلاف بين الأصوات الصامتة فى اللغات المختلفة يمكن ملاحظته ، كما يمكن التغلب عليه بالمران والخبرة ؛ هذا بالإضافة إلى أن الخطأ فى نطق الأصوات الصامتة يمكن التغاضى عنه ، وقد يمر دون

ملاحظة السامع . فالإنجليزى مثلا يستطيع أن يفهم العربى الذى يخطئ فى نطق الأصوات الصامتة ، ولكنه قد يجد صعوبة بالغة فى الفهم إذا كان الخطأ فى نطق الحركات.

قد يقال إن وجود مدرس ناجح كفيل بالتغلب على مشكلات النطق بالحركات الأجنبية وبخاصة إذا كان على علم بلغة المتعلمين ، إذ إنه - بطريق المقابلة بين حركات اللغتين - يستطيع أن يوجه التلاميذ توجيهًا صحيحًا فى هذا الشأن ، إننا لا ننكر أهمية المدرس الناجح الخبير بالدراسات الصوتية فى تعلم الحركات (وغيرها) ، ولكن الذى نخشاه هو أن التعليم - حتى فى هذه الحالة- لن يكون دقيقًا إلى الحد المنشود ، وذلك لسببين ظاهرين :

الأول: قد يكون المدرس نفسه متأثرًا فى نطقه لحركات اللغة التى يعلمها بألوان محلية بيئية ترجع إلى لهجته الخاصة ، أو لهجة قومه .

الثانى : من المؤكد أن المتعلمين أنفسهم يختلفون فيما بينهم فى نطق حركات لغتهم ، بسبب تأثرهم بعادات نطقية اكتسبوها من بيئاتهم الخاصة . والنتيجة الحتمية لذلك هى عدم الدقة ، لفقدان معيار أو مقياس ثابت يشار إليه أو يقاس عليه حين التعليم. وقد كان هذا كله دافعا لجمع من روّاد الدراسات الصوتية إلى البحث عن معايير عامّة يسترشد بها فى دراسة الحركات وتعلّمها . وقد وصلوا بالفعل إلى وضع هذه المعايير فى صورة ما سموه «الحركات المعيارية».

الحركات المعيارية [1]

قام هؤلاء الرواد بابتكار طريقة عامة من شأنها أن تضع حدودًا ثابتة ومقاييس معينة، تجعل احتمال الخطأ ضيقًا إلى أقصى حد ممكن. وذلك بطريق الاستنباط من اللغات المختلفة ، وبطريقة النظر فى خاصتها السمعية وفى إمكانيات الجهاز النطقى من حيث النطق بالحركات . وبعد محاولات عدة وتجارب كثيرة توصلوا من ذلك إلى وضع ما سموه «بالنظام المعيارى» للحركات ، أو الحركات المعيارية Cardinal vowels وهى حركات ليست مأخوذة من لغة معينة ، ولا يفترض وجودها فى لغة معينة كذلك . فربما توجد فى بعض اللغات وربما لا توجد فى بعض آخر ، فهى إذن حركات لا تنسب إلى أى لغة ، وإنما هى «معايير» أو «مقاييس» عامة ، تنسب إليها وتقاس عليها حركات أية لغة يراد دراستها أو تعلمها .

ومن أوائل من عنوا بالحركات المعيارية الأستاذ دانيال جونز الذى يرجع إليه الفضل الأول فى إنجاح هذا النظام وجعله يتخذ صفة العالمية فى الدراسات الصوتية . بدأ جونز عمله بأن نظر إلى عضوين مهمين كل الأهمية فى تكوين الحركات . وهذان العضوان هما الشفاه واللسان ، إذ هما العضوان الرئيسيان فى تعديل شكل مجرى الهواء الصاعد من الرئتين خلال الفم . أما بالنسبة للسان فقد نظر إليه جونز باعتبارين اثنين هما :

---

(١) اعتمدنا فى موضوع الحركات المعيارية على ما قرره دانيال جونز فى كتابه :

An Outline of English Phonetics

١ – وضعه بالنسبة للحنك الأعلى من حيث الارتفاع والانخفاض .

٢ – الجزء المعين من اللسان الذى يحدث فيه الارتفاع والانخفاض .

أما بالنسبة للشفتين فنظر إليهما من حيث :

١ – ضمهما .

٢ – وانفراجهما .

٣ – ومن حيث وضعهما فى وضع محايد . وبهاتين النظرتين توصل جونز إلى وضع ثمانى حركات معيارية ترسم كتابة بطريقة الكتابة الصوتية الدولية هكذا: (اقرأ من اليسار) : [i - e - ɛ - a - ɑ - ɔ - o - u] ووجد أن هذه الحركات الثمانى لها صفات صوتية واضحة ومحددة تحديدًا دقيقًا . ولكنه اكتشف أيضًا أن هناك حركات أخرى غامضة الصفة نوعًا ما وغير واضحة الحدود نسبيا ، إذا قيست بالحركات الثمانى المشار إليها سابقا . أهم هذه الحركات الغامضة والمثال النموذجى لها ما يرمز إليه كتابة بالرمز [ə] وبذلك تكون الحركات المعيارية التى ارتضاها جونز تسع حركات ، وبجانب هذه الحركات التسع الأساسية تنضم تسع حركات أخر تقابلها . وذلك بتغيير وضع الشفاه ، أى بجعلها فى وضع معاكس لوضعها مع الحركات الأساسية . فالحركة الأساسية [i] تقابلها الحركة الفرعية [y] ، فالأولى تنطق بانفراج الشفتين والثانية الفرعية تنطق بتغيير هذا الوضع بجعله فى حالة ضم الشفاه وهكذا الحال فى الباقيات .

وقد اقتصرنا هنا على النظر فى الحركات الأساسية لأهميتها فى علمنا هذا .

وصف مختصر للحركات المعيارية الأساسية :

الحركات المعيارية أخذت صفة الدولية فى عددها وطريقة كتابتها وترتيبها كذلك ، والترتيب المعترف به دوليًا الآن هو ما يلى : (اقرأ من اليمين) :

(١) i (٢) e (٣) ε (٤) a (٥) ɑ (٦) ɔ (٧) o (٨) u .

المعيارية رقم (١) = i :

هى الصوت الذى يرتفع مقدم اللسان حال النطق به تجاه الحنك الأعلى إلى أقصى حد ممكن ، مع بقاء هذا الصوت حركة ، أى بحيث إذا ارتفع اللسان أكثر من ذلك ضاق المجرى إلى درجة ينتج عنها حفيف مسموع ، وتكون النتيجة إصدار صوت آخر هو الياء وتكون الشفتان حال النطق بهذه الحركة منفرجتين .

المعيارية رقم (٥) = ɑ :

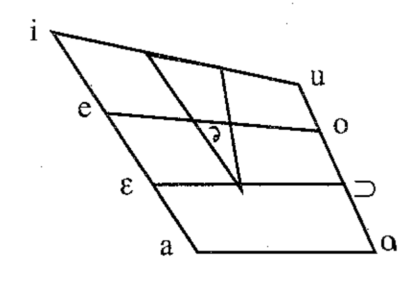
هى الصوت الذى ينخفض مؤخر اللسان حال النطق به إلى أقصى حد ممكن مع رجوع هذا الجزء من اللسان إلى الخلف قدر الطاقة ، ومع بقاء الصوت حركة، أى بحيث إذا تأخر اللسان أبعد من ذلك كانت النتيجة هى ظهور صوت آخر، هو نوع من الراء موجود فى بعض اللغات الأجنبية وتكون الشفتان فى نطق هذا الصوت غير مضمومتين .

أما الحركات رقم (٢) و(٣) و(٤) وهى (a ε e) فهى تكون تكون مع الحركة رقم (١) مجموعة الحركات التى تسمى بالحركات الأمامية (نسبة إلى الجزء الأمامى من اللسان) . ويجب أن نلاحظ - أنه حين الانتقال من

الحركة رقم (١) إلى (٢) ثم من (٢) إلى (٣) ومنها إلى (٤) – أن هذا الجزء الأمامي من اللسان ينخفض تدريجيًا بنسب متقاربة حتى يهبط إلى قاع الفم بحيث يكون مستويا أو يكاد ، حال النطق بالحركة رقم (٤) .

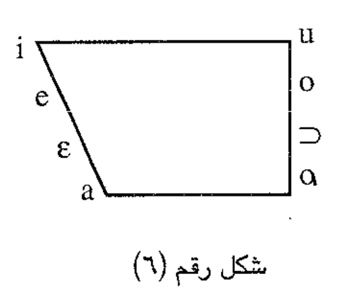
والحركات رقم (٦) و(٧) و(٨) وهي [ɔ o u] تكون مع الحركة رقم (٥) مجموعة أخرى من الحركات تسمى الحركات الخلفية نسبة إلى الجزء الخلفي من اللسان . وفي حالة الانتقال من الحركة رقم (٥) إلى (٦) ثم من (٦) إلى (٧) ومنها إلى (٨)، نلاحظ أن الجزء الخلفي من اللسان يرتفع تدريجيًا تجاه الحنك الأقصى بنسب متقاربة بحيث يصل إلى درجة من الارتفاع تسمح بمرور الهواء من غير أن يحدث أي حفيف مسموع ، إذ لو ارتفع مؤخر اللسان أكثر من ذلك كانت النتيجة خروج صوت الواو .

أما الحركة المعيارية التاسعة: [ə] فلا يرتفع اللسان معها من الخلف أو الأمام ارتفاعًا ملحوظًا ، كما لا ينخفض معها انخفاضًا كبيرًا في قاع الفم ، أي أن هذه الحركة لا تنسب إلى الجزء الأمامي ولا الخلفي من اللسان ، وإنما إلى وسطه لأنه الجزء المرتفع نسبيًا حال النطق بها . وإليك رسمًا هندسيًا يبين مواقع هذه الحركات وتدرجها من حيث الارتفاع والانخفاض (شكل رقم ٥) :



شكل رقم (٥)

يبين هذا الشكل الأوضاع النسبية لأعلى جزء من اللسان حال النطق بالحركات المعينة ، وقد أشرنا إلى هذه الأجزاء بالنقاط الكبيرة . كما ترى ، أما المنطقة الوسطى كلها فهى منطقة الحركات المركزية . وقد وجد بعض المعلمين أن الرسم المتقدم فيه صعوبة على الطلبة العاديين ومن ثم يفضلون الشكل التالى (شكل رقم ٦) :



شكل رقم (٦)

وفى هذا الشكل المبسط نجد أن الخطوط [ɑ – a و ɔ – ɛ و o – e و i-u] خطوط متوازية. وأن الزوايا التى تقع فيها [a , ɑ] زوايا قائمة ، وأن الخطوط [a ɑ و ɑ u و i - u] هى خطوط بنسبة ٢ إلى ٣ إلى ٤ بهذا الترتيب. ويمكن للدارسين الاعتماد على هذه المقاييس عند دراسة الحركات فى كل اللغات ، وذلك بطريق المقابلة بين القبيلين. أما القيمة الصوتية الدقيقة لهذه الحركات فلا يمكن تعرفها إلا بالنطق من معلم ناجح وبالاستماع إلى التسجيلات التى أخذت لها . ومع ذلك فقد انتخب الدارسون عدة كلمات من لغات مختلفة اشتملت كل كلمة منها على إحدى هذه الحركات ، على الوجه التالى :

الحركة الأولى i – ومثالها الكلمة الفرنسية si

الحركة الثانية e – ومثالها الكلمة الفرنسية thê

الحركة الثالثة ɛ – ومثالها الكلمة الفرنسية méme

الحركة الرابعة a – ومثالها الكلمة الفرنسية la

الحركة الخامسة ɑ – ومثالها الكلمة الفرنسية pas

الحركة السادسة ɔ – ومثالها الكلمة الألمانية sonne

الحركة السابعة o – ومثالها الكلمة الفرنسية rose

الحركة الثامنة u – ومثالها الكلمة الألمانية gut

على أنه يمكن تقريب القيم الصوتية لهذه الحركات لغير العارفين للفرنسية والألمانية بأمثلة إنجليزية بيسطة وأخرى عربية . الحركة رقم (١) تقرب منها أو تشبهها الحركة الإنجليزية فى نحو sit . كما أن هذه الحركة ذاتها تشبه الكسرة العربية المرققة (قصيرة أو طويلة) .

والحركة الثانية يمكن أن يمثل لها بالحركة فى الكلمة الإنجليزية get. وتكاد تقرب منها أو تسير فى اتجاهها الكسرة العربية المفخمة (قصيرة أو طويلة). أما الحركة الثالثة فلها ما يشبهها فى اللغة العربية وهى الفتحة الممالة فى نحو مجريها ومرساها فى بعض القراءات إلخ . ويقرب من الحركة الرابعة الحركة الإنجليزية فى cat ، وتشبهها كذلك الفتحة العربية المرققة (طويلة أو قصيرة) . وأوضح مثال للحركة الخامسة فى اللغة الإنجليزية هى الحركة الأولى فى نحو Father ولكنها دائمًا طويلة . وفى اللغة العربية ما يقرب أو يشبه هذه الحركة الخامسة، وهى الفتحة المفخمة. أما الحركة السادسة فتمثلها تقريبًا الحركة الإنجليزية فى hot وأقرب حركة إليها فى اللغة العربية هى الضمة نحو صُم أو الضمة المفخمة . والحق أن الضمة المفخمة فى العربية أقرب إلى الحركة رقم (٧) وتقرب منها كذلك الحركة [o] فى November بالنطق الإنجليزى . وتقرب من الحركة الثامنة تلك الحركة الإنجليزية فى نحو put وهى تشبه الضمة العربية المرققة . أما الحركة رقم (٩) فأحسن مثال لها الحركة الأخيرة فى نحو singer إلخ.

تصنيف الحركات المعيارية

الحركات المعيارية يمكن تصنيفها إلى مجموعات من وجوه عدة. وسوف نقصر كلامنا هنا على ثلاثة تقسيمات فقط . أما أسس التصنيف أو التقسيم فهى :

(أ) يمكن أن تصنف الحركات بالنظر إلى ذلك الجزء من اللسان الذى يفوق غيره فى الارتفاع .

(ب) يمكن أن تصنف الحركات بالنظر إلى درجة العلو التى يرتفع إليها اللسان.

(ج) بالنظر إلى أوضاع الشفتين .

التقسيم الأول :

إذا أخذنا الأساس الأول من أسس التقسيمات أمكننا أن نحصل على ثلاث مجموعات من الحركات ، لكل منها خصائصها بالنسبة لهذا الأساس ، وهو «جزء اللسان الذى يفوق غيره فى الارتفاع» . هذه المجموعات هى :

١ – الحركات الأمامية front vowels : وهى تلك الحركات الواقعة على الخط [i-a] (أى من الحركة الأولى حتى الرابعة) . فالحركات الأمامية إذن هى تلك الحركات التى يرتفع حال النطق بها الجزء الأمامى من اللسان تجاه مقدم الحنك الصلب .

٢ – الحركات الخلفية back vowels : وهى تلك الحركات الواقعة على الخط [ɑ - u] (من الحركة الثامنة حتى الخامسة) فالحركات الخلفية

إذن هـى تلك الحركات التى تتكون عن طريق رفع الجزء الخلفى من اللسان تجاه الحنك اللين أو أقصى الحنك .

٣ – **أما النوع الثالث** : من هذا التقسيم، فيشتمل على ما يسمى بالحركات الوسطى أو المركزية central vowels. وهى الحركات التى تكون أعلى نقطة فى اللسان حين النطق بها هى وسطه . والمثال العام لهذه الحركات هو الصوت الذى يرمز إليه كتابة بالرمز [ə] ويوجد بكثرة فى اللغة الإنجليزية . فهو موجود فى الحركة الأولى فى نحو about والحركة الأخيرة من كل كلمة تنتهى بالحرفين er أو or وتدل على الفاعلية كما هو فى نحو eater , maker , demonstrator .

التقسيم الثانى :

أما إذا أخذنا الأساس الثانى (وهو درجة العلو التى يرتفع إليها اللسان) فى الحسبان ، فإننا سوف نحصل على أربع مجموعات للحركات المعيارية هى :

١ – **الحركات الضيقة** close vowels وهى الحركات التى يكون وضع اللسان حال النطق بها على الخط [i - u] (أى خط الحركتين رقم : ٨ ، ورقم ١) فالحركات الضيقة إذن هى تلك الحركات التى يرتفع اللسان حال النطق بها تجاه الحنك الأعلى إلى أقصى درجة فى منطقة الحركات.

٢ – **الحركات المتسعة أو المنتفخة** open vowels : وهى الحركات التى يكون اللسان حال النطق بها على الخط [a – ɑ] (أى رقم: ٥ ، ٤) . فالحركات المتسعة أو المنتفخة إذن هى تلك الحركات التى يكون اللسان حال النطق بها منخفضًا فى قاع الفم إلى أقصى درجة .

٣ – **الحركات نصف الضيقة** half-close vowels : وهى الحركات التى يكون وضع اللسان حال النطق بها على الخط [e - o] (أى رقم : ٧ ، ٢) . فالحركات نصف الضيقة إذن هى الحركات التى يقع اللسان حال النطق بها فى ثلث المسافة من الحركات الضيقة إلى المتسعة .

٤ – **الحركات نصف المتسعة** half-open vowels : وهى الحركات التى يكون وضع اللسان حال النطق بها على الخط (ɔ - ɛ) (أى رقم : ٣،٦) فالحركات نصف المتسعة إذن هى تلك الحركات التى يقع اللسان حال النطق بها فى ثلثى المسافة من الحركات الضيقة إلى الحركات المتسعة .

التقسيم الثالث :

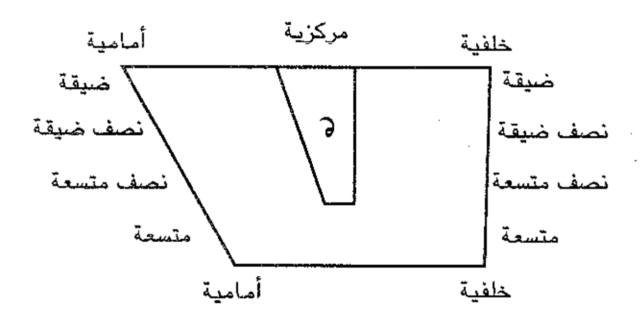
والحركات – على الرغم من أن خصائصها ومميزاتها الأصلية تعتمد على أوضاع اللسان – تتأثر إلى حد كبير بأوضاع الشفاه وأشكالها. فهذه الشفاه قد تكون منفرجة أومضمومة أو محايدة (أى فى وضع ليس منفرجًا وليس مضمومًا). والعادة أن الحركات التى تنطق مع انفراج الشفتين أو حين وضعهما فى وضع محايد تسمى الحركات غير المضمومة . ويمكن تمييز نوعين من انضمام الشفتين :

١ – انضمام شديد .

٢ – انضمام خفيف .

فالحركة رقم (١) [i] هى نموذج الحركات التى تنفرج معها الشفتان ، والحركة رقم (٥) [ɑ] تتصف بوضع الشفتين فى وضع محايد حال النطق بها . والحركة رقم (٦) [ɔ] تكون الشفتان معها مضمومتين

ضمًّا خفيفًا. أما الحركة رقم (٨) [u] . فتنضم الشفتان حال النطق ضما شديدا. أدرك هذه الخاصة منذ زمن بعيد أبو الأسود الدؤلى قصته المشهورة عندما طلب إليه وضع علامات للضبط إذ قال لكاتبه : «إذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فضع نقطة فوقه ، وإذا كسرت شفتى فضع نقطة تحته، وإذا ضممت شفتى فضع نقطة بين يدى الحرف». وكان هذا النص هو أساس تسمية الحركات العربية بالفتحة والكسرة والضمة . وإليك شكلا يبين وضع الحركات المعيارية الثمانى الرئيسية بالنسبة للتقسيمين الأولين فقط .



شكل رقم (٧)

هذا الذى قدّما بالنسبة لهذه الحركات الثمانى (أو التسع) ينصرف إلى الحركات القصيرة ، ومجمل ما قلنا من وصفها وأوضاعها ينطبق على الحركات الطويلة . والفرق بين القبيلين إنما يظهر فى القصر والطول فقط duration .

وجدير بالذكر أن كل الذى مضى فيما يتعلق بعدد الحركات المعيارية الرئيسية وتصنيفها إلى أنماطها المختلفة من عمل «دانيال جونز» وتابعيه ، وهناك آخرون سلكوا طريقا آخر يتفق معه فى مجمله

ويختلف معه اختلافا يسيرا. اكتفى هؤلاء بتعيين ثلاث حركات أمامية [æ- e - i] وثلاث خلفية [u، o ⊃] وحسبوا الحركة [ɑ] الخامسة فى تصنيف «دانيال جونز» واقفة بين الأمامية والخلفية من حيث جزء اللسان ومن حيث ارتفاعه أو انخفاضه النسبى كما يبدو من الرسم التالى:

خلفية مضمومة	خلفية غير مضمومة	أمامية غير مضمومة
u		i
o		e
⊃	ɑ	æ

فهى سبعة أنماط من الحركات المعيارية ، وقد يكون لكل منها أمثلة نوعية تدخل فى إطارها ، وبخاصة [ɑ] التى تتنوع إلى [a] (الرابعة فى تصنيف دانيال جونز) ، كما هو الحال فى الفتحة العربية ، فهى [α] فى مثل «صبر» ولكنها [a] فى نحو «سبر» .

ويقرر هؤلاء الدارسون أن الحركات [u - ɑ - i] هى أكثر الحركات وقوعا فى اللغات المختلفة ، بل لها وجود واقع فى كل اللغات المعروفة تقريبا ، ومن ثم يحسبونها معيارًا أو نماذج أساسية يشار إليها ، ويعتمد عليها عند الإشارة إلى الحركات الأخرى .

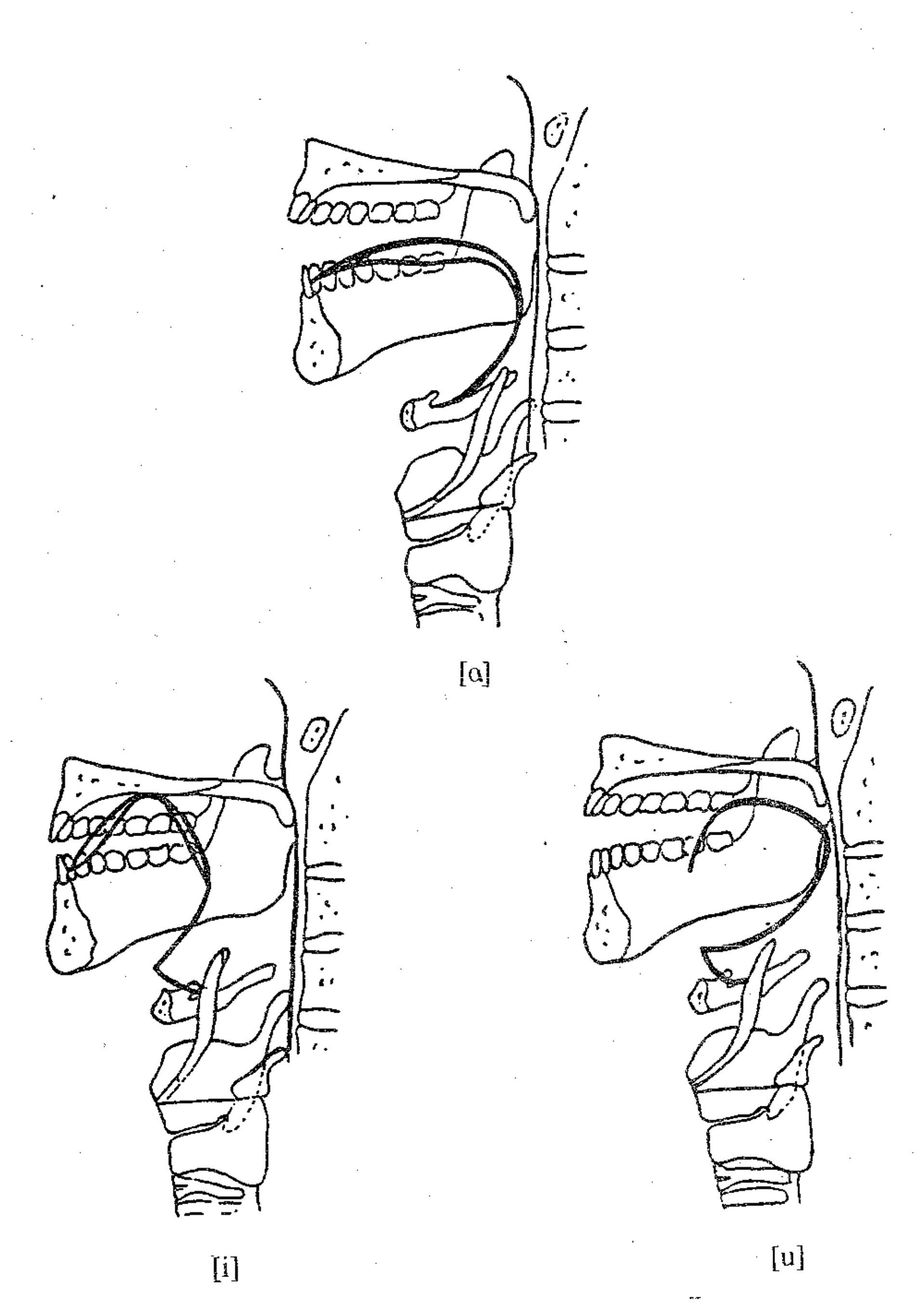
ومن اللافت للنظر أن بعض اللغات تقتصر أصواتها على هذه الحركات الثلاث فقط ، أى بوصفها وحدات Phonemes أو units ، أى بقطع النظر عن تنوعاتها النطقية الفعلية بحسب السياق الصوتى الذى تقع فيه.

من هذه اللغات اللغة العربية ولكن بمفهومنا الذى قررناه أكثر من مرة . وهو أننا نعني بالعربية كما ينطقها اليوم المتخصصون ومجيدو قراءة القرآن الكريم فى مصر ، وبقطع النظر عن تلك الحركات الفرعية كالإمالة والإشمام والرّوْم ، ففى عربيتنا اليوم بهذا المفهوم ثلاث حركات هى الكسرة والفتحة والضمة، وهى جميعًا تدخل فى إطار الحركات المعيارية [u - ɑ - i] بهذا الترتيب .

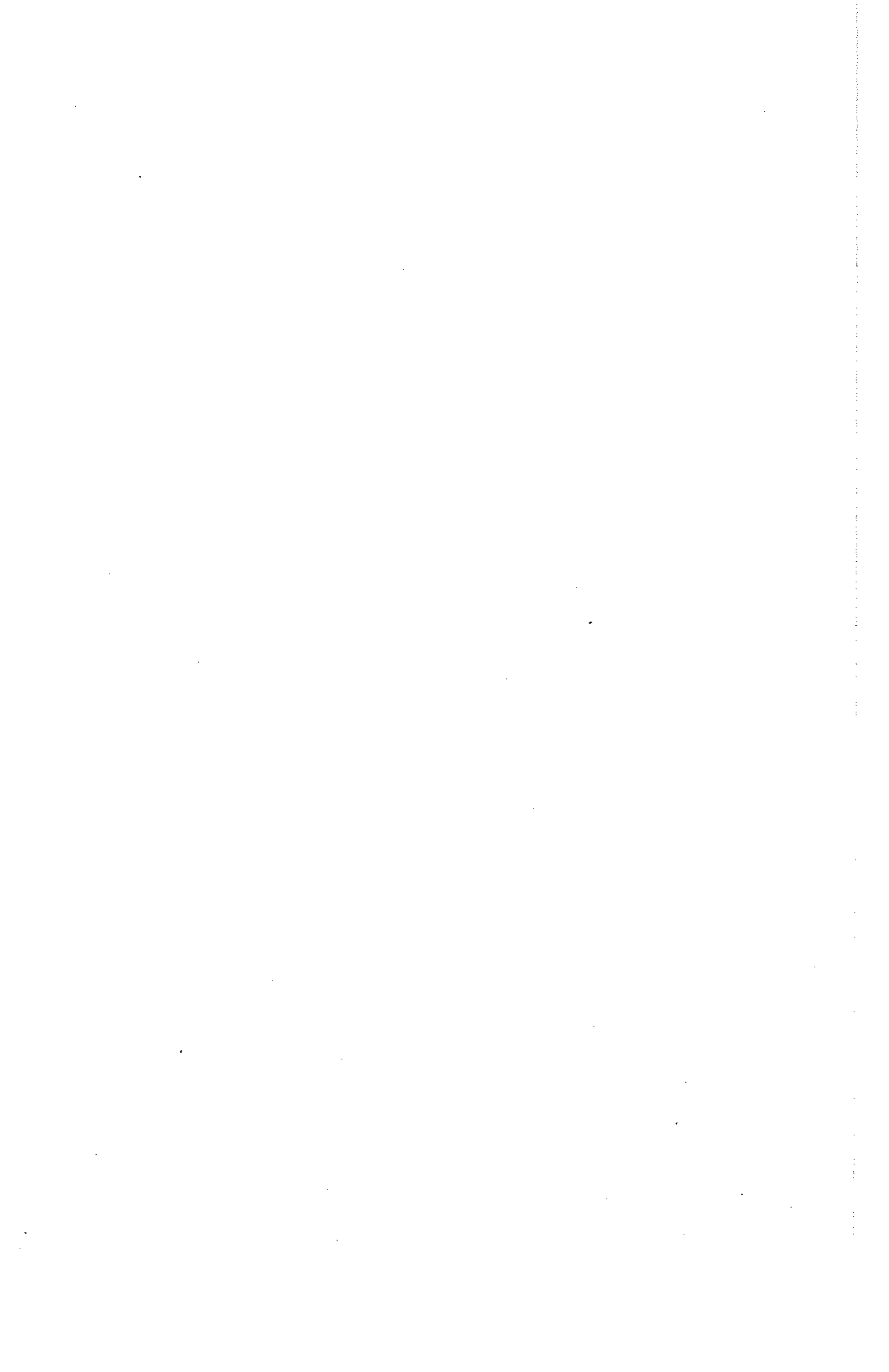
وفى رأى بعضهم أن هذه الحركَات الثلاث ، بوصفها وحدات أو فونيمات ، هى أول الحركات ظهورا فى كلام الأطفال على نطاق عالمي، كما يتبين ذلك من قولهم : papa - mama - dada - kaka - pipi - pupu .

إنهم يعلّلون قولهم هذا (وهو قول مقبول) بأن هذه الحركات الثلاث تمثل مواقعها أقصى درجات ارتفاع اللسان وانخفاضه . فالحركة [i] تحتل أقصى درجات ارتفاع اللسان من جزئه الأمامى ، والحركة [u] تقع فى أقصى درجات الارتفاع من جزئه الخلفى. أما موقع الحركة [ɑ] فإنه يمثل أقصى درجات الارتفاع والانخفاض (النسبى) بين الجانبين : الخلفى والأمامى من اللسان . لهذا لا تعجب إذا اختار الأطفال ، بل واللغات جميعا ، هذه الحركات أولا ، لأنها تمثل النهايات القصوى لدرجات ارتفاع اللسان وانخفاضه ، وما يجدّ من حركات أخرى يندرج بالتدريج بين هذه النهايات حتى تكتمل صورة نظام الحركات فى اللغة المعيّنة.

ولأهمية هذه الأنماط الثلاثة من حيث عموميتها ، وكونها نماذج أو معايير يشار إليها عند الكلام عن الحركات الأخرى ، قدم رجال الأصوات رسوما توضيحية مستقلة لأوضاع اللسان عند نطقها ، على الوجه التالى.



شكل رقم (٨)



الباب الثانى

الأصوات العربية

بيان للخواص وتحديد للمفهوم

وبه قسمان :

القسم الأول : الأصوات الصامتة

القسم الثانى : الحركات

عرضنا في الباب الأول لبعض القضايا الصوتية العامة، فبيّنّا ماهية «علم الأصوات» وموقعه في منظومة الدراسات اللغوية. ثم درجنا بعدُ إلى الأصوات اللغوية ذاتها، وحاولنا بيان طرائق وأساليب درسها وتحليلها ، بتقديم معايير عامة تتخذ أساسًا في هذا العمل وإنجازه . وقد اعتمدنا في وضع هذه المعايير على ما قرره الدارسون في القديم والحديث، ووقفنا أحيانا وقفات خاصة عند ما ألقى به إلينا علماء العربية في القديم ، مفسّرين ومعلّقين على وجهات نظرهم في هذا الشأن.

وكانت هذه الوقفات الخاصة منا ، للكشف عن جهود هؤلاء القوم في الدرس الصوتي، ولبيان موقعهم في صفوف العاملين في هذا الحقل، حتى يتبين لنا الرشد من الغيّ في الحكم عليهم وعلى ما خلّفوه لنا من تراث ضخم عميق ، حتى لنقولُ - باختصار - إنهم كانوا سبّاقين وروّادا في تشكيل منهج علمي مقبول ، بل على درجة عالية من الجودة ، إذا قيس بزمنهم السحيق الذى لم يحظوا فيه بأدوات البحث الصوتي الدقيق وأجهزته الفاعلة . ربما كان عملهم في هذا الميدان قليلا في كمّه ، ولكنه عميق في كيفه ، إذ نجحوا في تفسير مادته وتحليلها وتقعيدها نجاحا يفوق ما سلكوه في معالجة المستويات اللغوية الأخرى، من صرف ونحو إلخ . ونؤكد ذلك بقولنا نحن «لم ينجح العرب في دراساتهم اللغوية نجاحهم في دراسة الأصوات» ، أي من حيث النظر العلمي والتقعيد الموضوعي ، والاهتمام البالغ بالكيف لا بالكم .

ولسوف ننصرف الآن فى هذا الباب الثانى إلى معالجة أصوات العربية ذاتها، بوصفها وتحليلها تحليلا مختصرا فى ضوء ما قدمنا فى الباب الأول من مبادئ ومعايير عامّة يسترشد بها عند دراسة أصوات أية لغة . وينطبق هذا الذى نقول على أصوات لغتنا ،صوامتها وصوائتها على حدّ سواء . وسبيلنا فى ذلك هو وصف كل صوت وصفا مستقلا يميّزه من غيره ، تجميعا لخواصه ، بقصد التيسير على القارئ وتمكين المتعلم من استيعاب هذه الخواص بصورة دقيقة واضحة .

وسيأتى العمل فى هذا الباب ، مصنفا إلى قسمين : أحدهما خاص بالأصوات الصامتة consonants والثانى بالحركات vowels .

القسم الأول
الأصوات الصامتة
consonants

الأصوات الصامتة فى العربية ثمانية وعشرون صوتا ، بوصفها وحدات units ، تبدأ بالهمزة وتنتهى بالواو والياء ، على ما هو معروف .

ويجرى العمل هنا بتصنيفها أولا إلى مجموعات أو فئات ، وفقا لخواصها المشتركة ، ثم ندرج بعدُ إلى الوقوف عند كل صوت منها على حدة.

وقد جاء هذا التصنيف مبنيا على أسس ثلاثة هى :

١ – وضع الأوتار الصوتية .

٢ – مواضع النطق أى مخارجه .

٣ – حالة ممر الهواء فى أثناء النطق .

وجدير بالذكر أن الأساس الثالث هو محور الدراسة وترتيب المناقشة فى المجموعاتِ أوالفئات المختلفة ، ذلك أن هذا الأساس ينتظم الخاصة الفارقة بينها، والمميّزة لكل فئة أو مجموعة .

وقد جاء هذا القسم فى أربعة فصول .

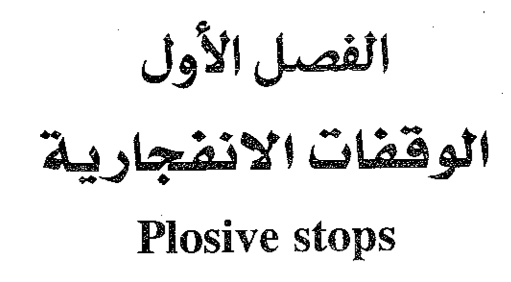
الفصل الأول : الوقفات الانفجارية .

الفصل الثانى: الأصوات الاحتكاكية .

الفصل الثالث : الأصوات المركبة أو الوقفات الاحتكاكية .

الفصل الرابع : صوامت ذات سمات خاصة .





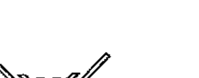
الفصل الأول

الوقفات الانفجارية

Plosive stops







الفصل الأول

الوقفات الانفجارية

Plosive stops

تتكون الوقفات الانفجارية – بقطع النظر عن اللغة المعينة – بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسًا تامًّا فى موضع من المواضع . وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائى فجأة ، فيندفع الهواء محدثًا صوتًا انفجاريًّا . فهذه الأصوات باعتبار الحبس أو الوقف يمكن تسميتها «بالوقفات» Stops ولكنها باعتبار الانفجار قد تسمى الأصوات الانفجارية Plosives . والأولى ما درجنا عليه وهو أخذ الخاصتين فى الحسبان ، ومن ثم أطلقنا عليها «الوقفات الانفجارية». والمواضع التى يقف فيها مجرى الهواء وقفا تامًّا عند إحداث الأصوات الوقفات الانفجارية فى اللغة العربية ، كما ينطقها مجيدو القراءات والمتخصصون بها فى مصر هى:

١– الشفتان ، وذلك بأن تنطبقا انطباقًا تامًّا كما فى حالة الباء .

٢– أصول الثنايا العليا ومقدمة اللثة ، وذلك بأن يلتقى بها طرف اللسان، وذلك فى حالة التاء والدال والظاء والضاد .

٣– أقصى الحنك ، بأن يلتقى به أقصى اللسان ، كما فى حالة الكاف .

٤– أدنى الحلق بما فى ذلك اللهاة ، بأن يلتقى به أقصى اللسان، وذلك فى القاف الفصيحة .

٥– الحنجرة ، وذلك فى همزة القطع .

فهى ثمانية أصوات : الباء والتاء والدال والطاء والضاد والكاف والقاف والهمزة . وهى عند علماء العربية ثمانية أيضا ، ولكنهم نزعوا منها الضاد وضموا إليها الجيم ، وسموها «الحروف الشديدة» ، وفسرنا نحن الشدة «بالوقفة» ، على ما سبق بيانه ، وكما ستأتى الإشارة إليه فى أماكنها المناسبة .

الباء :

عند النطق بالباء يقف الهواء الصادر من الرئتين وقوفا تامًّا عند الشفتين؛ إذ تنطبق هاتان الشفتان انطباقًا كاملاً ، ويضغط الهواء مدة قصيرة من الزمن. ثم تنفرج الشفتان فيندفع الهواء فجأة من الفم ، محدثا صوتًا انفجاريًا ، ويتذبذب الوتران الصوتيان فى أثناء النطق .

فالباء إذن صوت شفوى وقفة انفجارية مجهور .

وليس للباء نظير مهموس فى اللغة العربية . ومن هنا نلاحظ خطأ كثير من العرب فى نطق صوت [p] المهموس الموجود فى اللغة الإنجليزية مثلا ، حيث ينطقونه كما لو كان مجهورًا على سنن الباء العربية [b] . وقد يهمس صوت الباء العربى فى بعض مواقعه كالباء نحو كتابْ (بسكون الباء) وفى هذه الحالة يصحب الإهماس حرمان الصوت من الانفجار الكامل . ولعل هذه أحد الأسباب التى من أجلها

نص العرب على وجوب تحريك الباء بصويت أى قلقلته ، إذا كانت ساكنة، حتى يتحقق الانفجار والجهر التام . وكذلك تدغم الباء الساكنة فى وصل الكلام بالميم التالية لها فى النطق الصحيح وتصير مثلها ، وبخاصة فى قراءة القرآن الكريم ، كما فى نحو «اركب معنا» .

التاء :

يقف الهواء وقوفًا تامًّا حال النطق بالتاء عند نقطة التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة، ويضغط الهواء مدة من الزمن ثم ينفصل اللسان فجأة تاركًا نقطة الالتقاء فيحدث صوت انفجارى. ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق بالتاء .

فالتاء إذن صوت أسنانى - لثوى وقفة انفجارية مهموس .

وقد يصحب التاء شىء من الإجهار فى بعض السياقات ، إذا جاءت ساكنة متلوة بصوت مجهور كما فى نحو انعت داود (تنطق انعد داود).

كما يلاحظ أنها قد تصحب بنوع من الاحتكاك Friction إذا وليها كسر كما فى نحو «أختى» ويظهر ذلك بخاصة فى نطق الشواب من النساء وأضرابهن . وهو نطق خطأ ؛ إذ قد تصير صوتا مركبا [H] أو ما يشبه أن يكون كذلك . ومن ثمة لا نعجب أن عدها بعض القدماء من أصوات القلقلة حماية لها من الاحتكاك وتحقيقًا للانفجار المكمل لنطقها الصحيح .

ومن الجدير بالذكر أن سيبويه قد أدرك هذا الاحتمال (احتمال إصابة نطق التاء بشىء من الاحتكاك أى الرخاوة) . يقول ابن الجزرى

(النشر جـ ١ ص ٢١٧) : «والتاء يحتفظ بما فيها من الشدة (الوقفة) لئلا تصير رخوة (احتكاكية) كما ينطق بها بعض الناس ... ولذا أدخلها سيبويه فى جملة **حروف القلقلة** » . وهذا يعنى بوضوح أن الشدة (الوقفة المصحوبة بالانفجار) تحمى التاء من الاحتكاك كما يعنى أن قلقلتها أى تحريكها بصويت يساعد على هذه الحماية .

الدال :

وصوت الدال هو النظير المجهور للتاء، وليس بينهما من فرق إلا أن الوترين الصوتيين يتذبذبان مع الدال فى أثناء النطق .

فالدال صوت أسنانى - لثوى وقفة انفجارية .

وقد يصيب هذا الصوت أيضا نوع من الاحتكاك فيصير [d_3] . وهو نطق خطأ وواقع أيضًا من بعض الشوابّ ، وبخاصة فى اللسان الدارج ، كما فى قولهم مثلا «لادى ولادى» .

الطاء :

صوت الطاء هو النظير المفخَّم للتاء . فشكل اللسان مع الطاء يكون غير شكل اللسان مع التاء ، ففى حالة النطق بالطاء يرتفع مؤخر اللسان نحو أقصى الحنك ويتأخر قليلا نحو الجدار الخلفى للحلق . ويرى بعضهم أنه فى حالة النطق بالطاء يكون اللسان مقعّرا . أى يرتفع أقصاه وطرفه مع تقعير وسطه. وهذا هو المقصود بالإطباق عند علماء العربية فهو صوت مطبق أو مفخم وليست كذلك التاء ، فهى مرققة .

فالطاء إذن صوت أسنانى - لثوى وقفة انفجارية مهموس مفخم (أو مطبق) .

وقد وصفت الطاء فى التراث اللغوى القديم بأنها صوت مجهور. وعدوها واحدًا من أصوات «قطب جد» (أى أصوات القلقة) . وهى – فى نظرهم – أصوات شديدة مجهورة . وقد نص سيبويه نفسه على ذلك، وتابعه كل من جاء بعده من اللغويين والقراء ، ويؤخذ هذا المعنى من قوله : «لولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينًا والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام ، لأنه ليس من موضعها شىء غيرها».

يفيد هذا النص أن الطاء النظير المطبق (المفخم) للدال . أو بعبارة أخرى ، ليس هناك بين الصوتين فرق فى نظرهم إلا الإطباق فى الدال. فإذا زال هذا الإطباق أصبحت الطاء دالا . والدال كما هو معروف صوت مجهور . فالطاء – نظيرها المفخم – صوت مجهور كذلك .

وهناك ثلاثة احتمالات يمكن تقديمها لتفسير ما ذهب إليه هؤلاء اللغويون من وصفهم للطاء بأنها صوت مجهور .

الاحتمال الأول :

ليس من البعيد أن يكون هؤلاء العرب قد أخطأوا التقدير فظنوا أن الطاء مجهورة . وقد يقبل هذا الاحتمال إذا علمنا أنهم لم يشيروا إلى العامل الأساسى فى حدوث ظاهرتى الجهر والهمس ، ونعنى بهذا العامل وضع الأوتار الصوتية حال النطق بالأصوات ، بل قل : إنهم لم يشيروا إطلاقًا إلى وظيفة هذه الأوتار فى عملية النطق .

الاحتمال الثانى :

لعل تطورًا حدث فى نطق ذلك الصوت الذى يرمز إليه كتّابه بالرمز (ظ) فلعلهم كانوا ينطقونه فى القديم بما يشبه نطق الضاد الحالية .

والضاد الحالية – كما نعرف – صوت مجهور، وهى (لا الطاء) النظير المطبق أو المفخم للدال حسب نطقنا الحالى فى جمهورية مصر العربية.

ومعنى هذا الكلام فى الوقت نفسه أن ضادهم كانت تختلف عن ضادنا الحالية ، أى أنها صوت لا نظير له فى نطقنا الحالى . (انظر ص٢٥٣ وما بعدها) .

ويؤيد هذا الاحتمال الثانى بشقيه النص السابق لسيبويه الذى يقرر فيه صراحة أن الضاد **لا يخرج «من موضعها شىء غيرها»** . على حين أن ضادنا الحالية تخرج من منطقة التاء والطاء والدال .

فإذا كان هذا الاحتمال الثانى يمثل حقيقة تاريخية ساغ لهم ما يقولونه إذن من أن الطاء صوت مجهور، أى أنه كان ينطق نطقنا للضاد الحالية : إذ لا فرق فى نطقنا الآن بين الطاء والضاد إلا الهمس فى الطاء والجهر فى الضاد .فإذا نطقنا الطاء مجهورة كانت ضادًا وإذا عكسنا فنطقنا الضاد مهموسة كانت طاء.

الاحتمال الثالث :

لعلهم كانوا يصفون صوتًا يشبه صوت الطاء الذى نسمعه فى بعض لهجات الصعيد وفى نطق بعض السودانيين الآن . وهو صوت طاء مشربة بالتهميز glottalization حيث نشعر عند نطقها بوجود عنصر الهمزة فيها [1] .

ويتم نطق هذه الطاء المهمّزة بالطريقة التى تنطق بها طاؤنا الحالية، بإضافة عنصر جديد ، هو إقفال الأوتار الصوتية حال النطق

(١) قد لاحظ هذه الظاهرة من قبل الدكتور تمام حسان فى كتابه «مناهج البحث فى اللغة» ص ٩٤.

بها ، ومن ثم لا يمر الهواء خلال الحلق والفم ، ومن ثم يختلف ضغط الهواء فى هاتين المنطقتين وفى خارج جهاز النطق عنه خلف الأوتار الصوتية . وفجأة تنفصل الأعضاء المشتركة فى نطقها بعضها عن بعض فيخرج الهواء المضغوط خلف الأوتار بقوة ، ملتقيًا مع الهواء المندفع من الخارج فى الفم فنسمع طاء مهمّزة glottalized نتيجة إقفال الأوتار الصوتية حال النطق بها .

وهذا الصوت حينئذ من الصعب وصفه بالجهر أو الهمس . أما عدم الجهر فواضح لأن الجهر لا يحدث عند إقفال الأوتار الصوتية . وكذلك لا يحدث الهمس فى نظرنا إلا عند انفراج الوترين انفراجا معينًا ، فالهمس إذن ليس معناه عدم الجهر ، كما فعلوا فى الهمزة ذاتها (انظر ص ٢٨٨)

وإذا كان هذا هو ما كان يقع بالفعل فى نطق الأقدمين . فلعلهم لم يستطيعوا إدراك خواصها فظنوها مجهورة أو النظير المفخم للدال وهو صوت مجهور .

على أنا نسمع أحيانًا من السودانيين من ينطقها كما لو كانت مجهورة، كما وصفها الأقدمون ، وهى حينئذ تشبه الضاد التى تنطق فى مصر الآن .

الضاد :

هى النظير المجهور للطاء ، فلا فرق بينهما إلا أن الطاء صوت مهموس والضاد صوت مجهور . كما أنه لا فرق بين الدال والضاد إلا أن الضاد مطبق (مفخم) والدال لا إطباق فيه .

فالضاء إذن صوت أسنانى - لثوى وقفة انفجارية مجهور مفخم (مطبق).

وهذا الوصف الذى أوردناه للضاد يختلف عما ذكره علماء العربية لهذا الصوت فى نقطتين أساسيتين :

أولاهما : تتعلق بموضع النطق .

والثانية : خاصة بكيفية مرور الهواء عند النطق .

أما فيما يتعلق بموضع النطق فقد نسبها سيبويه – وتبعه ابن جنى وغيره – إلى منطقة تلى منطقة الجيم والشين والياء. أما الخليل فقد نسبها إلى حيز الجيم والشين، لا إلى حيز تال لمخرجهما ، وسمى الأصوات الثلاثة الأصوات الشجرية. والملاحظ أنه لم يذكر الياء فى هذه المجموعة ، وإنما ذكرها مع الواو الألف، بحسبانها جميعا حروف «علة». وهذه الأصوات الثلاثة – كما قرروا هم – تخرج من وسط الحنك. وبضم هذه الحقيقة إلى ما ذكروه من وصف لمخرج الضاد يمكن القول بأنها – على رأيهم – تخرج من منطقة قريبة من وسط الحنك، أو هى – بتعبير حديث – لثوية – حنكية. وهذا فى الحق يختلف عما نمارسه اليوم من نطق الضاد، إذ هى الآن تخرج من نقطة الدال والتاء والطاء، وهذه الأصوات الأربعة أسنانية - لثوية.

أما تفسير ما ذهب إليه هؤلاء العلماء فيمكن إرجاعه إلى واحد من احتمالين اثنين:

الأول :

يرى بعضهم أنه ليس من البعيد أن يكون لغويو العرب قد أخفقوا فى تحديد الموضع الدقيق لنطق الضاد. ولكن هذا الاحتمال بعيد فى رأينا. إذ تناقضه الشواهد الكثيرة الواردة عنهم.

الثانى :

يبدو أن سيبويه وغيره من علماء العربية والقراءة كانوا يتكلمون عن ضاد غير تلك الضاد التى نعرفها ونمارسها نطقا اليوم فى جمهورية مصر العربية. وهناك من النصوص الواردة عنهم ما يؤيد هذا الاحتمال.

فهناك أولا ذلك النص المشهور الذى ساقه سيبويه متضمنا الإشارة إلى موضع نطق هذا الصوت. يقول: «لولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سينا ، والظاء ذالا ، ولخرجت الضاد من الكلام ، لأنه ليس من موضعها شىء غيرها [1].

وهكذا نرى أنه نسب الضاد إلى موضع لا يشترك معها فيه غيرها. على حين أن ضادنا الحالية تخرج من النقطة التى تخرج منها التاء والدال والطاء . ويؤيد هذا الاستنتاج كذلك ما أشار إليه فى النص نفسه من أن الطاء (لا الضاد). هى النظير المفخم للدال، على عكس الموجود فى نطقنا الحاضر، إذ فيه تقع الضاد موقع النظير المفخم لهذا الصوت (الدال).

ومما يرجح هذا الاحتمال كذلك وصفهم لكيفية نطقها وحالة ممر هوائها عند هذا النطق. يقول ابن جنى فى هذا الشأن: فإن «شئت تكلفها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر ، أو من كليهما» [2].

ومعنى هذا الكلام أن الهواء فى أثناء النطق بالضاد يخرج من أحد جانبى الفم أو منهما معا، كما يحدث ذلك فى نطق اللام، فكأن الضاد – بهذا الاحتمال – صوت جانبى كاللام تماما .

---

(١) الكتاب لسيبويه ج٣ ص ٤٠٦ .

(٢) ابن جنى : سر صناعة الإعراب ، ج١ ص٥٢.

وهذا النص الأخير يسلمنا إلى نقطة الخلاف الثانية بيننا وبين العرب القدامى فى وصف الضاد. وهذه النقطة تتمثل فى أن الضاد عندهم ليست شديدة أى ليست وقفة انفجارية ، وإنما هى رخوة أى احتكاكية بالتعبير الحديث. وهم - لهذا السبب - لم يذكروها ضمن أصوات «أجدت طبقك»؛ وهى الأصوات الشديدة فى نظرهم.

ومعنى هذا بنص كلامهم أن الضاد القديمة يمكن نسبتها إلى مجموعتين من الأصوات بحسب حالة ممر الهواء عند النطق بها.

فهى عندهم كاللام، فهى جانبية لأن هواءها ينحرف إلى جانبى الفم، كما جاء الكلام السابق لابن جنى، وكما فى كلام بعضهم من أن الرواة كانوا يضربون مثلا «لبلاغة عمر أنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقيه شاء» وعليه جاء قول بعضهم «الطجع» باللام بدلا من الضاد فى «اضطجع».

وأصرح من هذا ما جاء فى هذا المقام عن باحث ذواقة، هو الأستاذ حفنى ناصف، حيث يقول: «**فالضاد واللام يتوزعان حافة اللسان**»، وكما يؤكد هذا المعنى نفسه حين يقرر أن : «الضاد مستطيلة ومخرجها جانب اللسان لا طرفه» [1].

وهذه الضاد كذلك يمكن نسبتها إلى الأصوات الاحتكاكية، وهذا ما تشير إليه نصوصهم المتناثرة هنا وهناك، حيث لم يذكرها فى الأصوات الشديدة ولا فى الأصوات المتوسطة، بل إن سيبويه نفسه نص على أن الضاد صوت رخو (احتكاكى)، وهذه عبارته (الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٦) :

(١) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ، لحفنى ناصف ص ١٧ و ٢٤ .

ومن الأصوات «الرخوة، وهي الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاى والسين والظاء والثاء والذال والفاء». وهذا الكلام نفسه يفهم من عبارة لابن جنى يتكلم فيها عن عدم إدغام الضاء فى الطاء، فيقول:

«وأما الضاد فلأن فيها طولا وتفشيا فلو أدغمت فى الطاء لذهب ما فيها من التفشى، فلم يجز ذلك»[1]، فوصفها بالتفشى يعنى أنها رخوة أى احتكاكية؛ إذ التفشى إنما يظهر مع هذه الأصوات، ونموذجها الأشهر هو الشين. وقد ورد مثل هذا المعنى على لسان حفنى ناصف فى وصفه الضاد ، فيقول: «وفى الضاد تفشٍّ قليل ولذا عدها بعضهم مع الشين»[2].

ويبدو على كل حال أن الضاد القديمة فى نطقها كانت تجمع بين الظاهرتين، ظاهرة خروج هوائها من جانبى الفم كاللام وظاهرة الاحتكاك.

وبتطبيق هاتين الظاهرتين مضمومتين إلى نقطة النطق نحس بصعوبة بالغة فى نطق هذه الضاد؛ وقلما استطاع واحد منا أن يأتى بنطق مثالى يوائم ما قدمه لها العرب من خواص وسمات.

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ج١ ص٢٢٤ . ولابن جنى نص آخر فى المرجع المذكور (ص٢٢٢) يتعلق بقضية إدغام الضاد فى الطاء (وفى غيرها) وفيه يقول : «واعلم أن الضاد واحدة من خمسة أحرف يدغم فيهن ما قاربهن ولا يدغمن هن فيما قاربهن . وهى الراء والشين والضاد والفاء والميم . ويجمعها فى اللفظ : ضم شفر . ومنهم من يخرج الضاد من هذه الخمسة ويقول : قد أدغموا الضاد فى الطاء فى بعض اللغات ، فقالوا فى اضطجع اطجع . وهذه لغة شاذة. ويجمع الأربعة الأحرف الباقية فيقول هى : مشفر، والقول الأول هو الذى عليه العمل» . وهكذا نرى أن هذا النص لا يتعارض مع ما ذكرناه فوق ، وذلك لأن ابن جنى – كما صرح هو بذلك – لم يأخذ بهذا الرأى الشاذ فى موضوع الإدغام ، ولأن المسألة هنا ليست مسألة الإدغام وإنما هى مسألة التفشى التى تفيد صفة الاحتكاك فى الضاد وهذا هو المقصود فى هذا المقام.

(٢) حفنى ناصف . السابق .

وليس أمامنا من توضيح لنطق هذا الصوت أكثر من القول: لعلها كانت تشبه ذلك الصوت الذى هو وسط بين الضاد والظاء فى بعض اللهجات فى البلاد العربية كالعراق والكويت، أو بعبارة أدق، لعل ما ينطقه هؤلاء الناس فى هذه المناطق أثر باق من آثار الضاد القديمة، أو هو تطور صوتى لها.

ومهما يكن من أمر فالمفهوم من جملة التراث اللغوى للعرب أن الضاد القديمة صوت احتكاكى جانبى، وأنه ليس له ما يناظره من الأصوات فى موضع النطق حتى إذا زال عنه الإطباق (التفخيم) لم يبق منه فى العربية شىء.

ولكن هناك مستشرقا مشهورا هو – يوهان فك – يأتى بكلام فى موضوع الضاد يفهم منه صراحة أن الضاد فى الأصل هى النظير للدال، أى أنها حينئذ كانت تشبه ضادنا الحالية أو هى هى، غير أن هذا الصوت – فى نظره – قد تغير فيما بعد فى اللغة الدارجة أو المولدة بسبب اختلاط العرب بغيرهم منذ بداية الفتوح الإسلامية الأولى. وهذا هو النص :

و«يتعلق بهذا أيضا (أى اكتساب اللغة المولدة بعض السمات الصوتية والصرفية والنحوية الجديدة) تغيير حرف الضاد. وهذا الصوت الذى هو فى أصله الحرف المطبق القسيم للدال خاص بالعربية بحيث يسمى العرب فى أحد الأحاديث المشهورة: الناطقين بالضاد».

فإذا قبلنا هذا النص وعددناه صحيحا كان هناك واحد من احتمالين لتفسير رأى علماء العربية فى الضاد التى لم يعدوها نظيرا مفخما للدال، والتى منحوها صفة الاحتكاك :

الاحتمال الأول: أنهم اخطأوا فى وصفها، ولم يوفقوا فى تحديد صفاتها.

الاحتمال الثانى: أنهم وصفوا الضاد المولدة لا الضاد العربية الأصلية.

ويبدو لى حتى الآن أن الاحتمال الثانى هو الأرجح، ربما لكثرة استعمال الصوت المولد وشيوعه على الألسنة عند قيام حركة التأليف اللغوى.

كما أن هذا المستشرق نفسه يروى عن بعض اللغويين العرب بأن الضاد العربية تنطق بست صور «فمن الناس من ينطقها كالذال، وغيرهم كالطاء، وآخرون يومئون إليها بالظاء» كما أن «بعض الناس ينطقها دالا مفخمة وبعضهم ينطقها دالا عادية وأخيرا ينطقها بعضهم لاما مفخمة، ومن بين جميع هذه الصور يكثر نطقها اليوم دالا مفخمة[1].

تعقيب:

يتبين مما تقدم أن صوت الضاد يشكل قصة عصيا استيعاب حقيقتها – والوقوف على أبعادها – ، أو هو – فى الحق – يمثل قضية ولا أبا حسن لها. لقد حار الناس فى القديم والحديث فى تعرّفه وفى إدراك خواصّه المميزة له، وصفا وأداء نطقيا، حتى إن بعض المتخصصين وقراء القرآن الكريم اليوم يصفونه بصورة تختلف عما يخبرونه فى النطق الفعلى. إنهم غالبا ما يقدمون له الوصف الذى ألقى به إلينا علماء العربية فى القديم، أى كونه صوتا احتكاكيا جانبيا، به شبه قريب بالظاء واللام معا، فى حين أنهم ينطقونه وقفة انفجارية (شديدا)، نظيرا مفخما للدال، كما هو الشأن فى نطق المصريين الآن. وآخرون ينطقونه نوعا من الظاء، كما فى بعض بلاد الخليج، ويخلطون

(١) العربية ليوهان فك ص ١٠٢–١٠٣ .

فى الكتابة بينهما. كما نلاحظ إبدال اللام فى بعض الكلمات الأسبانية المقترضة من أصول عربية بها صوت الضاد، وينطق دالاً عادية أحيانا وبخاصة فى نطق السيدات، وإن كانت هذه الصورة الأخيرة تقع فى إطار عادة بعض السيدات من الميل إلى ترقيق الأصوات المفخمة كلها (الصاد والضاد والطاد والظاء).

وهنا نتساءل: ما السر فى هذا الخلط المذكور وغيره، نظرا وتطبيقا؟

هناك احتمالات عدة. **أولها**، وأهمها فى نظرنا، أننا لم نسمع هذا الصوت **منطوقا** من كل أولئك الذين وصفوه بطريقتهم، بدءا من سيبويه وتابعيه. ومن المقرر أن أصوات اللغة بالذات لايمكن تعرفها تعرفا دقيقا أو الوقوف على خواصها إلا بالسماع لمنطوق واقع بالفعل. وأنّى لنا ذلك؟ فمعيار الحكم الصحيح غائب (وهو النطق الفعلى)، وفى غيابه مظنة الخطأ أو الخلط فى التطبيق .

ثانيها أن ترجمة الوصف الذى قدمه السابقون ترجمة نطقية وأداء فعليا فيه قدر كبير من الصعوبة إذ هو وصف متأرجح ينحو بخواص الصوت نحو سمات أصوات أخرى، وبخاصة الظاء واللام ، فالضاد فى وصفهم صوت **رخو** (احتكاكى) فاقترب من الظاء، وهو **جانبى** فاختلط باللام. ولاغرابة فى نطقه ذالا أحيانا أو زايا مفخمة أحيانا أخرى، إذ الذال هو النظير المرقق للظاء ، والزاى المفخمة هى تحريف للظاء، كما هو الحال الآن فى اللسان الدارج فى مثل «ضابط».

أما نطق الضاد طاء فيفسره ما أسلفنا القول فيه من أن الطاء فى وصفهم صوت مجهور، فهو حينئذ صوت **الضاد** أو ما يشبهه، كما نلمس

ذلك الآن فى نطق بعض أبناء الصعيد وشمال السودان ، ونطق الضاد دالا مفخمة يمثل نطقنا الحالى فى مصر، إذ لافرق بين الدال والضاد فى كل السمات عدا الترقيق فى الأول والتفخيم فى الثانى.

ومما يزيد فى صعوبة تعرف حقيقة هذا الصوت وإدراك خواصه المميزة له، اختلاف عبارات السابقين فى وصفه اختلافا ينبئ عن اختلافهم هم أنفسهم فى ضبط حدوده ضبطا دقيقا، وفى كيفية أدائه نطقا على وجه متفرد، يكسبه استقلالا وكيانا خاصا به فى الذات والصفات. فهو منسوب فى مخرجه إلى مخرج (أو حيّز) أصوات ليست من قبيله، وكيفية مرور الهواء عند النطق به مختلف فى تفسيرها، وهو عند بعضهم من أصوات التفشّى، ولكنه منفرد بالاستطالة. ولا ندرى ما المقصود بالاستطالة، ولايمكن تفسيرها بالرخاوة (الاحتكاك)، لقصرهم هذا الوصف على صوت الضاد وحده دون بقية الأصوات الرخوة.

وقد لخّص ابن الجزرى هذه الحال فى عبارات قصيرة، يقول: المخرج الثامن للضاد المعجمة. من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر عند الأكثر ومن الأيمن عند الأقل. وكلام سيبويه يدل على أنها تكون من الجانبين. وقال الخليل إنها أيضا شجرية، يعنى من مخرج الثلاثة قبلهما، (يعنى الجيم والشين والياء غير المدية[1]). ثم يقول: «وحرف التفشى هو الشين اتفاقا.... وأضاف بعضهم إليها الفاء والضاد».

---

(١) وهم ابن الجزرى فى النقل عن الخليل ، إذ إن الخليل لم يذكر «الياء» فى هذه المجموعة ، وإنما ضمها إلى الألف والواو (واى) ووضع الثلاثة فى نهاية الألفباء بعد الحروف الصحاح (العين ج١ ص٦٥) .

ثم يختتم حديثه بالإشارة إلى ما ألمحنا إليه سابقا من وصف نطق الضاد بالصعوبة، فيقول: «وليس فى الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن ألسنة الناس فيه مختلفة، وقل من يحسنه. فمنهم من يخرجه ظاء ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخمة ومنهم من يشمه الزاى وكل ذلك لايجون» [1] !

والرأى عندنا أن العُسْر (أو الصعوبة) فى نطق الضاد ليس عُسْرا مطلقا يعود إلى طبيعة الصوت نفسه. إنه عُسْر يرجع إلى واحد من أمرين: الاختلاف فى نطقه باختلاف البيئة والثقافة والخبرة والدربة، أو الاختلاف فى ترجمة وصف السابقين لهذا الصوت، إذ هو وصف غير واضح الحدود والمعالم، بالإضافة إلى اختلاف عبارات الواصفين له، الأمر الذى من شأنه أن يؤدى إلى الخلط فى الترجمة النطقية الفعلية لما قدموا من وصوف. ومعلوم أنه لايعسر ولايصعب نطق أصوات اللغة المعينة على أهليها، متى كانوا منتمين إلى الجماعة اللغوية صاحبة هذه اللغة، ذات التقاليد والأعراف اللغوية المشتركة. قد يخطئ بعضهم فى نطق بعض الأصوات، ولكنهم – عاجلا أو آجلا – يعدلون أو يصححون، إما بالمحاولة والتجريب، وإما بالإرشاد والتوجيه.

أما الاحتمال الثالث لتفسير الخلط فى وصف الضاد فربما يرجع فى نظرنا إلى انصراف كل واحد من المقعّدين لأصوات العربية إلى وصف صورة من صور نطقه المتعددة والمختلفة باختلاف الناطقين من حيث البيئة الجغرافية والأوضاع الاجتماعية والثقافية، ومن حيث المواطنة

---

(١) راجع النشر فى القرات العشر. لابن الجزرى ج١ ص٢١٤ .

أو الغربة، فجاءت وصوفهم لهذا الصوت متعددة ومختلفة أيضا. ثم جاء الخالفون وجمعوا هذه الوصوف بعضها إلى بعض، وخرجوا من ذلك بوصف عام مضطرب، نتيجة لانتظامه وصوفا (أو عناصر منها) سيقت فى الأصل لوصف صور مختلفة من النطق .

ومن المقرر (والواقع يؤيده) أن كل صوت من أصوات اللغة قابل لأن ينطق بصور مختلفة، وعلى المقعدين حينئذ الانصراف إلى تلك الصورة الأكثر شيوعا والأقرب إلى العمومية والأوفق إلى نظام الأصوات لهذه اللغة، ولهم بعدُ أن يشيروا إلى الصور الأخرى إشارات خاصة منفردة، بوصفها رطانات أو لهجات أو شذوذات. لقد سلك القدماء هذا المسلك الراشد عند وضع قواعد المستويات الأخرى. قرروا فى علم الصرف مثلا أن «مصون» من «صان» هو القاعدة فى صيغة اسم المفعول، ولكنهم في الوقت نفسه أشاروا إلى لهجات أخرى تسلك مسلكا مخالفا، حيث درج أصحابها على استعمال الصيغة «مصوون». وكذلك كان الأمر فى قواعد النحو، حيث نصوا على أن الفعل يجب تجريده من علامات التثنية والجمع إذا كان الفاعل اسما ظاهرا مثنى أو جمعا. ولكنهم أيضا لم ينسوا النص على سلوك مخالف وقع فى بعض اللهجات التى لم تلتزم بهذه القاعدة، فجاء فى كلامهم إلحاق الفعل بهذه العلامات مع الفاعل الظاهر المثنى والجمع.

وتميل د. سلوى ناظم إلى «القول بأن الضاد بوصفهم (وصف القدماء) لم تكن وحدة صوتية مستقلة، phoneme فى بداية الأمر. وإنما كانت أمثلتها تنوعات نطقية Variants لوحدات صوتية هى الصاد أو

الظاء أو لكلتيهما. وبمرور الزمان تجمعت هذه التنوعات واقتربت بعضها من بعض نطقا وربما وظيفة، وكونت لنفسها إطارا خاصا، وأصبحت فونيما مستقلا عرفت فيما بعد بالضاد»[1]. وهذا الرأى وإن كان مقبولا فى ظاهره لم يعتمد على المعيار الأساسى لتعرف حقيقة الأصوات، وهو السماع الفعلى.

وينسب بعضهم هذا الخلط فى وصف الضاد ونطقها إلى أن «الضاد والصاد والظاء كانت متقاربة نطقا فى اللغة العربية»، وأن الحروف كانت غير منقوطة، «فاتخذوا حرفا واحدا لتدوين الصاد والضاد. وأن هذه الصاد والضاد كانتا صورتين صوتيتين لوحدة صوتية مستقلة»..

ويبدو أن الخلط بين الضاد والظاء على وجه الخصوص كان (وما يزال) أعمق وأشد تعقيدا وأوسع انتشارا. ولم يقتصر الخلط بين الصوتين على النطق، بل امتدّ أثره إلى الكتابة، الأمر الذى دعا بعض الدارسين إلى تقديم بحوث بل كتب مستقلة لمعالجة قضية الخلط هذه ، بمحاولة وضع الفروق الفاصلة بين الصوتين. ومن هؤلاء الصاحب أبو القاسم إسماعيل ابن عباد فى كتابه «الفرق بين الضاد والظاء».

حاول الرجل ما حاول فى هذا الكتاب وجهد نفسه فى إبراز أهم الخواص الفارقة بين «الحرفين» نطقا وكتبا، حتى يستبين الأمر للناطقين والكاتبين جميعا.. وعلى الرغم من كل ما قدم «الصاحب» وغيره، مازال الخلط بينهما ملحوظا حتى الآن، فى بعض البلاد العربية.

---

(١) راجع د. سلوى ناظم فى بحث لها بعنوان «العربية لغة الضاد أم الظاء؟» قدمته إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى دروته الخامسة والستين.

وينسب «ابن عباد» هذا الخلط إلى صعوبة تعرف حقيقة كل من «الحرفين» ونعى على كل الواقعين فى هذا الخلط، ويرى أن فى سلوكهم هذا إفسادا اللغة، ومن ثم لم يجد بدا من تأليف هذا الكتاب، يقول فى مقدمة الكتاب (ص : جـ - د): «إن هذين الحرفين قد اعتاص معرفتهما على عامة الكتاب، لتقارب أجناسهما في المسامع وأشكال أصل تأسيس كل واحد منهما، والتباس حقيقة كتابتهما، فلم يجد بدا من تأليف كتاب فى هذا الموضوع؛ لأن فى ترك النظر فى ذلك إفسادا للغة، وتغيير الأحكام العربية، وهجنة على من لم يحظ به معرفة.... وكان صميم العرب لايخلطون بعضهما ببعض، ويميزون إحداهما من الأخرى، فلا يقع عندهم بينهما اشتباه، كما لايشتبه بسائر الحروف، ولكن ذلك يحتاج إلى معرفة وإتقان، وأما من لايعرف ذلك فيهوى فى هوى المهالك، ويكتب الضاد بصورة الظاء، والظاء بصورة الضاد ويكون إصلاحه كالإفساد» .

ويستمر «الصاحب» فى كلامه مقررا أن هذا الخلط يقع من كثير من الناس، خاصتهم وعامتهم على سواء، وذلك لفساد ألسنتهم، وقلة حظهم من علم الأدب. وهذه عبارته: وعلى هذا الخلط «أكثر كتاب الزمن ذوو الهزال منهم كذوى السمن.. والذى أوقعهم فى ذلك فساد ألسنتهم بالنطق بها فى مخرج متفق والجهل بالتفرقة بينهما فى المنطق وقلة معرفتهم بلغة العرب وتضييعهم لحظهم من علم الأدب».

ثم يأتى الشيخ محمد حسن آل ياسين محقق الكتاب المذكور، ويؤكد فى تقديمه له ما قرره «الصاحب»، ويزيد عليه أن هذا الخلط بين الحرفين

كان قديما بسبب اختلاط العرب بغيرهم، وأنه شاع وذاع بين الناس جميعا، الأمر الذى حرّض أعلام اللغة على معالجة هذا الداء. يقول: (ص . ب - مطبعة المعارف - بغداد سنة ١٩٥٨) «وتدل الدراسات المرتبطة بهذا الموضوع على أن الخلط بين حرفى الضاد والظاء كان من أبرز مظاهر التردى اللغوى عند العرب منذ عهودهم الأولى بالاختلاط بغيرهم، بل الظاهر أن داء الخلط لم يقتصر على العامة فقط، ولكن تجاوزهم إلى الأدباء والكتاب أيضا، فأفسد عليهم الأمر، وأظهر عوراتهم فى الكتابة بارزة للعيان. فكان ذلك هو المحرض لأعلام اللغة على الاهتمام الرائد بعلاج هذا الداء».

ويحاول «ابن الجزرى» التفريق بين الضاد والظاء بعبارة موجزة غامضة، فيقول: «والضاد والظاء اشتركا صفة: جهرا ورخاوة واستعلاء وإطباقا، وافترقا مخرجا وانفرد الضاد بالاستطالة»[1]. فكأن الفارق الأساسى بينهما هو تفرد الضاد بالاستطالة ولسنا ندرى بالدقة ما المقصود بالاستطالة. إنها لاتعنى الرخاوة بدليل اتفاق الظاء معها فى هذه الصفة، كما يبدو واضحا من النص نفسه. ربما تفسّر «الاستطالة» فى عبارته بامتداد الهواء وخروجه من أحد جانبى الفم أو من كليهما، على ما روى عن السابقين، فيكون الضاد ذا صفة جانبية كاللام.

وبهذا النحو من التفسير، يرى «كانتينو» أن النطق القديم للضاد كان [ظ ل] أى ظاء ذات زائدة «انحرافية». ويشبهه فى ذلك قول «هنرى فليش»: «كان العرب يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد. وهو عبارة عن صوت مفخم، يحتمل أنه كان ظاء جانبية، أى أنه كان يجمع

(١) النشر فى القرات العشر . لابن الجزرى ج١ ص٢١٤ .

الظاء واللام فى ظاهرة واحدة. وقد اختفى هذا الصوت فلم يعد يسمع فى العالم العربى، وأصبح بصفة عامة إما صوتا انفجاريا (وقفة انفجارية)، هو مطبق الدال وإما صوتا أسنانيا هو الظاء»[1].

وهكذا لم نخرج فى نهاية المطاف من جملة هذه الأقوال السابقة بتحديد واضح لصوت الضاد، وتعيين حاسم لخواصه المميزة له نطقا ووظيفة، فلم يزل الاشتباك بينه وبين غيره من الأصوات قائما، ويشتد هذا الاشتباك ويقوى بينه وبين الظاء، ولكنا مع ذلك قد وصلنا إلى توجيه آخر للقضية كلها، معتمدين فى ذلك على جملة ما قرأنا فى القديم والحديث، واعتمادا على المنطوق الفعلى فى العالم العربى، بوصف هذا المنطوق امتدادا لنطق قديم أو أثرا باقيا منه.

وهذا يقتضى منا أن نعرض لثلاثة أصوات معينة، هى لب المشكلة التى لم نفرغ من مناقشتها حتى الآن.. ونأمل من هذا العرض أن نصل إلى فض الاشتباك بينها، وبيان أيها الأولى بأن تنسب إليه لغة العرب.. هذه الأصوات الثلاثة هى الضاد الجارية على لسان المصريين الآن، والضاد التى وصفها القدماء وغيرهم والظاء.

الصوت الأول:

هو الصوت الذى سبق أن وصفناه (ص٢٥٣) بأنه «صوت أسنانى - لثوى وقفة انفجارية مجهور مفخم» وهو الصوت الذى ينطقه ويعتمده المتخصصون وقراء القرآن الكريم فى مصر النظير المفخم للدال. ورمزه فى الكتابة الصوتية الدولية [ḍ]. وله وظيفة مستقلة فى النظام الصوتى

---

(١) هنرى فليش «العربية الفصحى: دراسة فى البناء اللغوى» (تعريب وتحقيق وتقديم) د. عبد الصبور شاهين، مطبعة الشباب ص ٥١.

تختلف عن وظيفة نظيره الدال (وغيره)، كما يبدو ذلك واضحا من نحو «ضل × دل».

وهذا الصوت بهذه الوصوف النطقية والوظيفية إما أنه أثر باق من صوت قديم (كما تلمح بذلك بعض الأقوال) أو تطور له، وإما أنه صوت الطاء الذى وصفوه بالجهر، إذ لا فرق بينهما إلا الجهر فى الضاد والهمس فى الطاء.

وهذا الصوت فى نظر بعض المحدثين [1] - ونحن معهم - هو الصوت الذى تنطبق عليه المقولة الشائعة المشهورة «العربية لغة الضاد»، إذ لاوجود له حقيقيا فى غيرها من اللغات، والقول بأن له أثرا باقيا فى بعض الكلمات الحبشية، لايبطل هذا الزعم، إذ لم يسطع أحد حتى الآن بيان حقيقة الأمر فيه فى هذه اللغة، ولم يلق إلينا بمادة لغوية تكفى لحسبانه صوتا مستقلا نطقا ووظيفة.

وربما يتوهم بعضهم وجود صوت الضاد فى نحو budd وmudd فى اللغة الإنجليزية؛ إذ الصوت الأخير فى الكلمتين هو صوت [d] وأصابه التفخيم بالسياق، إنه يشبه الضاد نطقا، ولكن وظيفته فى النظام الصوتى للغة الإنجليزية هى وظيفة [d] فقط ، واعتماد الصوت صوتا مستقلا أو وحدة صوتية phoneme لايبنى فى الأساس على نطقه وإنما على وظيفته، كما هو معروف.

الصوت الثانى :

ونعنى به صوت الضاد الذى وصفه القدامى، وتبعهم بعض

(١) د. سلوى ناظم - السابق .

الخالفين، والذى شغلنا الكلام فيه وعنه فى جملة هذه الصفحات المعقود لها العنوان «الضاد».

إنه بوصفهم المشار إليه فيما سبق أكثر من مرة، ينحو فى النطق نحو الظاء أو اللام أو كليهما، وقد يكون زايا مفخمة أو دالا مفخمة ومرققة، إنه بهذا الوصف غائم الذات والصفات، ولايمكن وصفه بحال وصفا دقيقا دون السماع المباشر، كما لايمكن حتى الآن وضع رمز صوتى يشير إليه، ولاأثر لهذا الصوت على الإطلاق فى كلام المصريين وبعض الجهات الأخرى فى البلاد العربية، وإن كان - على ما يبدو - له أثر باق على ألسنة بعض مواطنى الخليج العربى، كالكويت والعراق، وبعض قبائل الأردن.

ومن المهم أن نقرر أن هذا الصوت - بوصفهم هذا الذى ذكروا - ليس من الدقة بمكان أن ننسب إليه المقولة الشائعة «العربية لغة الضاد». ذلك أن كثيرا من الدارسين الثقات فى القديم والحديث، قد أشاروا - بالتصريح أو التلميح - إلى أن هذا الصوت ليس مقصورا على العربية، ومال بعضهم إلى تأكيد وجوده أو أثر منه فى اللغات السامية الأخرى.

ففى القديم، لم نلحظ أثرا لهذه المقولة (العربية لغة الضاد) أو نحوها فى كلام الخليل، وإنما الذى هناك هو تأكيده «أن الظاء (لا الضاد) هى الخاصة بالعرب «ولايشركهم فيه أحد من سائر الأمم» (انظر فيما بعد). ويأتى من بعده صاحب «تاج العروس». فيروى كلام الخليل، ويؤكده بالنقل عن أحد شيوخه كلام الخليل بنصه من أن الظاء هى الخاصة بالعربية، ويزيد عليه تصريحه بأنه «لايعتد بمن قال إنما الخاص

(بالعربية) الضاد». ويعلق صاحب التاج على كلام شيخه بقوله: «قلت وكأنه تعريض على البدر القرافى، حيث قال إنما المختص بهم الضاد».

ويذهب ابن الجزرى فى «النشر» إلى أبعد من ذلك، حيث يقرر – بعد كلام طويل له عن الضاد – أن «الحديث المشهور على الألسنة (أنا أفصح من نطق بالضاد) لا أصل له ولايصح»[1]. إنه لم يكتف بنفى كون الضاد خاصة بالعربية، بل تعداه إلى الشك فى صحة الحديث الذى يفهم منه خصوصية العرب بهذا الصوت، إذ إن الرسول – عليه الصلاة والسلام – كان أفصح الناطقين به (وهم العرب).

وهناك إشارات أخرى فى القديم تنبئ بصورة من الصور عن الشك فى مضمون المقولة السابقة (العربية لغة الضاد). من ذلك قول ابن فارس فى «الصاحبى»: «وزعم ناس أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم[2]».

فالتعبير بقوله «وزعم» يوحى بعدم ارتياحه لهذا المفهوم.

وفى الدرس اللغوى الحديث، نلحظ إشارات بل أقوالا واثقة تفيد أن الضاد ليست مقصورة على العربية، يفهم هذا – وإن بتفسير مختلف – من قول د. أنيس «إن استعمال النزعة الشعوبية أدى إلى أن تشيع التسمية التى خلعها العرب على لغتهم، وهى لغة الضاد»[3]. فكأن د. أنيس يريد أن يقول إن المقولة (العربية لغة الضاد) صادرة عن نزعة شعوبية، وليست تعبيرا عن واقع .

---

(١) «النشر» ج١ ص ٢١٩–٢٢٠ .

(٢) «الصاحبى» لابن فارس ص ١٠٠ – ط بيروت .

(٣) «اللغة بين القومية والعالمية» ص ١٩٨ .

ويكاد المشتغلون بالدراسات السامية يؤكدون عدم انفراد العربية بصوت الضاد، فالدكتورة سلوى ناظم تقرر «أن الضاد التى وصفها القدامى لها وجود فى اللغة الحبشية». وتروى عن شيخها د. خليل نامى قوله: «لاتوجد الضاد إلا فى لغات الشعبة الجنوبية، وهى اللغة العربية واللغات العربية الجنوبية واللغات الحبشية». ثم تروى لنا شيئا عن تاريخ هذا الصوت وما آل إليه فى اللغات السامية، بقصد التوضيح لمقولة شيخها، فتقول «تتحول (الضاد) إلى صاد فى العبرية والأكادية وإلى صاد أو طاء فى الأوجاريتية وإلى عين فى الآرامية. وبقيت ضادا فى كل من العربية الشمالية والجنوبية والحبشية»[1].

وبهذا كله استقر لنا ما زعمناه وقررناه فيما سبق أن المقولة «العربية الضاد» – أى بوصفهم المروى لنا – مقولة غير دقيقة، وأن هذه المقولة الأولى بها أن تنسحب على الضاد التى تجرى على ألسنة المصريين ومن سلك مسلكهم فى بلاد عربية أخرى.

الصوت الثالث:

أما ثالث الثلاثة من الأصوات التى صعب على كثير من الناس تعرفها، ووقعوا فى الخلط بينها نظرا وأداء، والتى حاولنا – ونحاول – فض الاشتباك بينها – هذا الصوت هو الظاء (المعجمة).

جاء وصف القدامى لهذا الصوت مطابقا أو يكاد يكون كذلك لوصفنا له حسب نطق قراء القرآن الكريم والمتخصصين فى مصر. وهو أنه صوت أسنانى (أى من بين الأسنان) احتكاكى (رخو) مجهور مفخم.

---

(١) د. سلوى ناظم – السابق.

وقد عرضنا له فى هذا السياق لبيان أنه – على الرغم من وضوح تعريفه فى القديم والحديث – ما يزال بعض العرب يخلطون بينه وبين صوت الضاد. ويبدو – على ما سبق بيانه – أن الخلط يرجع إلى صوت الضاد الغائم تحديده، والعصى له أداؤه على ألسنة بعض الناس، والمروى عن بعضهم – ما ذكرنا آنفا – أنه **ليس خاصا بلغة العرب**.

وهذا يجرنا إلى إثارة نقطة أخرى مهمة فى هذا المقام بالنسبة لصوت الظاء. هناك إشارات متناثرة فى أعمال السالفين والخالفين تشير، بل تكاد تؤكد أن صوت الظاء (**لا الضاد**) هو الخاص بالعربية. جاء فى «لسان العرب»: «روى الليث أن الخليل قال: **الظاء حرف عربى خص به لسان العرب لايشركهم فيه أحد من سائر الأمم**. والظاء من الحروف المجهورة. والظاء والذال والثاء فى حيز واحد». ويأتى صاحب «تاج العروس» ويسجل هذه الرواية بنصها (تقريبا)، ويزيد عليها قوله: قال شيخنا وصرح بمثله أبو حيان وشيخه ابن أبى الأحوص وغير واحد. **فلا يعتد بمن قال إنما الخاص (بالعربية) الضاد**».

وقد مال إلى هذا الرأى (خصوصية الظاء لا الضاد بالعربية) بعض المشتغلين بالدراسات السامية[1].

---

(١) د. سلوى ناظم – السابق.

الكاف :

يتكون هذا الصوت برفع أقصى اللسان تجاه أقصى الحنك الأعلى (أو الحنك اللين) والتصاقه به، ليسد مجرى الهواء من الأنف، ويضغط (أى يقف) هذا الهواء لمدة قصيرة من الزمن، ثم يطلق سراح المجرى الهوائى، فيحدث انفجار مفاجئ. ولا يتذبذب الوتران الصوتيان حال النطق به ، فالكاف إذن صوت حنكى قصى وقفة انفجارية مهموس .

وقد يصيب الكاف نوع من الإجهار فى بعض السياقات كما فى نحو «أكبر» فينطق كما لو كان جيما قاهرية [g] فى الكلام غير المتأنى، وبخاصة ممن لايجيدون الأداء النطقى الصحيح للأصوات، وهذا الإجهار لصوت الكاف أو نطقه جيما قاهرية، أمر يمكن تفسيره، إذ هذه الجيم هى النظير المجهور للكاف.

وقد اشتبه (ومايزال يشتبه) على بعضهم موضع النطق بالكاف، فيخلطون بين مخرجها ومخرج القاف، أو يفرّقون بينهما تفريقا غامضا. فسيبويه نفسه وضعهما فى حيز واحد. وعلى فرض تفسير «الحين» (على مايفهم من كلام الخليل) بأنه منطقة أوسع نسبيا من المخرج، ما يزال الكلام فى حاجة إلى نظر، ذلك أن الكاف قصية (من أقصى الحنك) والقاف لهوية صرفة، وهما حيزان أو منطقتان مختلفتان، بكل المقاييس.

ويشتد هذا الاشتباه ويقوى عند بعضهم «فمكّى» مثلا عند كلامه على «الحروف اللهوية»، يقول: «وهما حرفان القاف والكاف، سماهما الخليل بذلك لأنه نسبهما إلى الموضع الذى يخرجان منه وهو اللهاة». وليس يُذهب هذا الخلط أو يوضحه توضيحا كافيا محاولته التفريق بين

الصوتين فى بعض السمات وفى المخرج كذلك، يقول «مكّى» فى موضع آخر عند الكلام على الكاف: «وهى مهموسة شديدة (وقفة انفجارية). لولا **الجهر** والاستعلاء اللذان فى القاف لكانت كافا. كذلك لولا الهمس والتسفُّل اللذان فى الكاف لكانت قافا، **لقرب مخرجيهما**». فتعبيره «بقرب مخرجيهما (بصيغة المثنى) قد يوحى بأنه يدرك الفرق بينهما فى المخرج، ولكن يعكر الصفو عليه أنه عدهما (القاف والكاف) نظيرين، (باستثناء ما ذكر من صفات)، ولا يكون التناظر تاما بين أى صوتين (أو أصوات) إلا باتحاد المخرج. هذا بالإضافة إلى وقوعه فى مأزق آخر، وهو وصفه القاف **بالجهر**، وهذا لاينطبق بحال على القاف (الفصيحة)، كما هو مقرر فى نطقنا الآن .

ولنا أن نفسر هذا الاشتباه من القدامى (وبعض المحدثين) بواحد من اثنين، أو هما معا. **الأول** : لعل هؤلاء وأولئك حسبوا اللهاة منطقة واسعة تغطى أقصى الحنك بما فى ذلك اللهاة بمفهومهم. **الثانى** : وهو الأقرب إلى فهمنا لجملة كلامهم - أنهم يتكلمون عن صورة أخرى من صور نطق القاف فى القديم والحديث. هذه الصورة تتمثل فى نطق أهالى الصعيد فى مصر وبعض جهات الوجه البحرى فى مصر، وفى كثير من العاميات العربية المختلفة. إنها فى نطق هؤلاء جميعا حنكية قصية مجهورة، وهى النظير المجهور للكاف، مع إشرابها شيئا من الاستعلاء. هذه الصورة العامية نسميها نحن (بقصد التمييز) صوت «الجاف» (بنطق الجيم جيما قاهرية)، ورمزها فى الكتابة الصوتية الدولية هو [G]، للتفريق بينها وبين الجيم القاهرية المشار إليها فى هذه الكتابة بالرمز [g] .

ومن الجدير بالذكر أن صوت الكاف (وهو وقفة انفجارية) قد تعرض في القديم والحديث لشيء من الاحتكاك، وبخاصة إذا وليته كسرة. هذا الاحتكاك هو ما أشار إليه الدارسون في القديم وسمّوه «الكشكشة»، أي إشراب الكاف شيئا من صفات صوت الشين، وهو احتكاكي صرف، وفيه تفشٍّ ظاهر، ولاحظوا (كما نلاحظ نحن الآن) أن هذه الكشكشة تصيب الكاف إذا كانت مكسورة. ويرجع هذا الاحتكاك أو الكشكشة إلى عملية فسيولوجية خالصة عند النطق بالكاف، ذلك أنه عند انتقال اللسان من موضع نطق الكاف (وهى قصية) إلى الكسرة (وهى أمامية) قد يتسرب شيء من الهواء، محدثا احتكاكا (كشكشة)، بدلا من خروجه منفجرا بعد الوقفة التى يبدأ بها فى نطق الكاف (وكل الأصوات الوقفات الانفجاريات).

أما فى الحديث فقد شاعت هذه الظاهرة (الكشكشة أو الاحتكاك) فى كلام كثير من البيئات العربية فى اللسان الدارج كما فى الكويت وفلسطين، ولم يقتصر الأمر فى ذلك على حالة الكاف المتلوّة بكسرة، بل تعدى ذلك إلى سياقات أخرى كثيرة، الأمر الذى يحتاج إلى نظر خاص ودراسة مستقلة.

ولاحتمال وقوع الكشكشة فى الكاف (وهى ظاهرة خارجة عن الأصل)، عدها بعضهم من حروف القلقلة، أى وجوب إتباعها بصويت (شبه تحريك خفيف) عند سكونها تحقيقا للانفجار المكمل لنطقها نطقا صحيحا، وحماية لها من تسرب الهواء الذى يحدث نوعا من الاحتكاك، الموسوم هنا بالكشكشة. يقول صاحب «النشر» (جـ١ ص ٢٠٣): «وذكر المبرد منها (حروف القلقلة) الكاف». ثم يؤكد ما قررنا من أن القلقلة

(التحريك بصويت) تعمل على تحقيق النطق السليم للصوت وتحميه من الكشكشة (الاحتكاك). يقول: «وسميت هذه الحروف بذلك، لأنها إذا سكنت ضعفت فاشتبهت بغيرها، فيحتاج إلى ظهور صوت يشبه النبرة (الصويت) حال سكونهن فى الوقف وغيره، وإلى زيادة إتمام النطق بهن».

القاف :

يتم نطق هذا الصوت برفع أقصى اللسان حتى يلتقى باللهاة ويلتصق بها فيقف الهواء، مع عدم السماح له بالمرور من الأنف. وبعد ضغط الهواء مدة من الزمن يطلق سراح مجرى الهواء بأن يخفض أقصى اللسان فجأة فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا ولايتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به.

فالقاف إذن صوت لهوى وقفة انفجارية مهموس ورمزه فى الكتابة الصوتية الدولية هو [q] .

ويتضح من هذا الوصف أن بيننا وبين علماء العربية نقطتى خلاف فى صوت القاف، النقطة الأولى منهما خاصة بموضع النطق والثانية بصفة الجهر والهمس.

أما من حيث موضع النطق فقد وصفها سيبويه - وتابعه فى ذلك ابن جنى وغيره بأنها - «من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى»[1] وهم فى ترتيبهم للأصوات من حيث المخرج وضعوا القاف تالية للغين والخاء لا قبلهما وهذا هو الترتيب عند سيبويه (... والعين والحاء والغين

(١) الكتاب لسيبويه ، جـ ٢ ص ٤٠٥ .

والخاء والكاف والقاف)[1]. وقد جاء ترتيب الخليل وابن جنى موافقا لما صنعه سيبويه هنا، من جعل القاف فى موضع تال للغين والخاء.

وهذا الكلام نفسه ينطبق على وصف الخليل للقاف «بأنها لهوية». فعلى الرغم من تصريحه بالوصف «لهوية» لايمكن أخذ كلامه على أنه يقصد اللهاة بالمعنى المعروف لنا، وإلا كان مخطئا فى تقدير مواضع الغين والخاء والكاف كذلك . فالخليل – مثل سيبويه – وضع الغين والخاء قبل القاف لابعدها هكذا : (... غ خ ق ك). فلو كان يقصد اللهاة بمعناها العلمى المعروف لنا الآن لوجب عليه أن يعكس هذا الترتيب، إذ تخرج الغين والخاء من منطقة تلى اللهاة لاتسبقها[2]. أضف إلى هذا أن الخليل وصف الكاف كذلك بأنها لهوية، حيث يقول: «والقاف والكاف لهويتان»[3]، وليست الكاف لهوية بحال من الأحوال.

فالأمر حينئذ بالنسبة للخليل لايعدو واحدا من اثنين: إما أنه أخطأ فى تقدير موضع الغين والخاء والكاف وأصاب فى تقدير موضع القاف فوصفها بأنها لهوية ، أو أنه لم يفطن إلى موضع اللهاة فى الجهاز النطقى، فأخطأ فى تقدير موضع القاف.

وقد حاول بعض المتأخرين الإشارة إلى المخرج الصحيح للقاف (اللهوية المهموسة). من هؤلاء ابن يعيش فى شرح المفصل (جـ ١٠ ص ١٣٨)،

---

(١) السابق جـ٢ ص ٤٠٤ . وعلى الرغم من وضع الكاف قبل القاف فى هذا الترتيب فإن هذا لا يعنى أنها أسبق من القاف مخرجا عند سيبويه ، وإنما هما معًا أقرب أن يكونا من حيّز أو مخرج عام واحد، أو أن الكاف بعد القاف إلى الأمام قليلا ، كما صرح بذلك هو نفسه عند الكلام على توزيع الأصوات على مخارجها (الكتاب ج٢ ص٤٠٥) . وهذا ما سار عليه ابن جنى وغيره .

(٢) وصفهم للغين والخاء بأنهما من الحلق (وهو سابق للهاة) أمر غير دقيق ويحتاج إلى مناقشة ، انظر ص ٣٠٣ وما بعدها .

(٣) كتاب العين الخليل ج١ ص ٦٥ .

حيث يقول: «إن القاف أدنى حروف الفم إلى الحلق، والكاف تليها»، وهذا القول فى ذاته مقبول وصحيح، إذ هى أعمق أصوات الفم، ومخرجها اللهاة، وهى فى نهاية الحلق وبداية الفم . ولكن يعكر عليه الصفو نص له آخر، يقول فيه ابن يعيش : «... القاف أقرب إلى حروف الحلق والكاف أبعد منها». فإذا كان يقصد بحروف الحلق العين والحاء فقط فكلامه هنا أيضا صحيح. ولكن من المعروف والمشهور عنهم أنهم حسبوا الغين والخاء من حروف الحلق أيضا، وهما – كما هو مقرر من أقصى الحنك أى من مدرجة تالية للهاة، وهى مدرجة تخرج منها الكاف و«الجاف» [G]، أى القاف بنطق اللسان الدارج فى جنوب مصر وبعض المناطق الريفية فى شمال مصر. ومعنى هذا أن كلام ابن يعيش يكتنفه الغموض، بل يناقض بعضه بعضا. وإذا أخذنا هذا الكلام مضموما بعضه إلى بعض خرجنا منه بأن الأمر مايزال مشتبها على ابن يعيش: أهى القاف اللهوية (بالمعنى الدقيق) أم القاف (الجاف) القصية.

وخلاصة القول فى مخرج القاف – كما يفهم من التراث القديم فى مجموعه – أنها تخرج من أقصى الحنك. أو هى حنكية – قصية بالتعبير الحديث، فى حين أنها لهوية فى النطق المعاصر. كما يظهر ذلك فى نطق قراء القرآن الكريم فى جمهورية مصر العربية.

أما تفسير هذا الخلاف فى موضع النطق فمرجعه إلى واحد من اثنين:

الأول : لعل علماء العربية أخطأوا فى تقدير الموضع الدقيق لنطق القاف، وهذا احتمال يراه بعض الدارسين المحدثين.

الثانى: وهو ما تشير الدلائل إلى رجحانه، هو أن العرب ربما كانوا يتكلمون عن قاف تختلف عن قافنا الحاضرة. ليس من البعيد أنهم

يقصدون بالقاف ذلك الصوت الذى تمكن تسميته «بالجاف» أو ما يشبه الكاف الفارسية. وهو ذلك الصوت الذى نسمعه فى بعض جهات الصعيد وريف الوجه البحرى، وفى كثير من عاميات البلاد العربية. وهو شبيه بالجيم القاهرية، أو هو هى من حيث الأثر السمعى (وإن اختلفا فى التوزيع الصوتى فى اللغة وفى وظائفهما فى البنية اللغوية).

ويؤيد هذا الاحتمال أمور. منها ما ذكرناه سابقا من نسبتها إلى موضع للنطق مختلف عن مخرج القاف المعاصرة. ومنها وصفهم لها بأنها صوت مجهور، ويؤكده ذكرهم لها ضمن أصوات «قطب جد». وهى أصوات سموها أصوات القلقلة. وسماتها الأساسية - كما قالوا هم - كون هذه الأصوات شديدة (وقفة انفجارية) مجهورة.

ووصف القاف بالجهر يمثل نقطة الخلاف الثانية بيننا وبينهم فى وصف هذا الصوت إذ القاف بنطقنا الحاضر صوت مهموس، كما سبق أن ذكرنا .

إذا صح هذا الاحتمال سلم للعرب ما رأوه من وضع القاف مع الغين والخاء. وسلم لهم كذلك القول بأنها مجهورة. ويكون الصوت الموصوف حينئذ هو صوت الجاف [G]؛ إذ هو صوت من منطقة الغين والخاء أو هو من موضع تال لهما. وفى هذه الحالة كذلك يكون وضعه مع الكاف فى منطقة عامة واحدة عملا سليما، إذ الجاف [G] نظير الكاف فى الموضع والوقف الانفجارى ، وتختلف معها فى كونها مجهورة والكاف مهموسة .

والجاف نطقا تشبه الجيم القاهرية فى نحو جمال. ولكنها تختلف

معها فى الوظيفة والقيمة الصوتية فى بنية الكلمة . كما يختلف الصوتان فى أن كلا منهما ينتمى إلى مستوى لغوى معين. فالجاف [G] تنتمى إلى اللسان الدارج فى صعيد مصر ونحوه من الدارجات العاميات فى كثير من البلاد العالم العربى، فى حين أن جيم القاهرة [g] تنتمى إلى القاهرة والمدن والحواضر الأخرى فى مصر وغيرها.

وجدير بالذكر أن الناطقين بالجاف لايستعملون الجيم القاهرية فى كلامهم، وإنما يستعملون الجيم (الفصيحة) [dj]، حتى لايغمض كلامهم ويلتبس الأمر على السامعين، إذ هما – كما قررنا – صوتان متفقان فى النطق .

فالجاف إذن صوت حنكى – قصى وقفة انفجارية مجهور. وهذا الوصف مستنتج من جملة كلام الدارسين العرب فى القديم، ومترجم لنطق القاف (الجاف) فى معظم اللهجات العامية فى شتى أنحاء العالم العربى، كما ذكرنا قبلا.

ونعود فنؤكد أن جملة وصوف القدماء لصوت القاف تنطبق تمام الانطباق على صوت «الجاف» القصية المجهورة التى تشارك الغين والخاء والكاف (والجيم القاهرية) فى حيز نطق واحد. هذا التأكيد يستخلص من صنيعهم هم أنفسهم عند الكلام في موقع آخر، ونعنى به مقام الحديث عما سموها «حروف الحلق». وهى «حروف» (أصوات) ستة بنص عبارتهم التى تقول:

همز فهاء ثم عين حاء   مهملتان ثم غين خاء

وتقع فى منطقة واسعة سموها الحلق، وصنفها الأذكياء منهم إلى

ثلاث مناطق جزئية: أقصى الحلق ومنه الهمزة والهاء ووسطه ومنها العين والحاء وأدناه ومنها الغين والخاء، وهذه المنطقة الأخيرة هى ما تسمى الآن وتعرف بأقصى الحنك. فلو كانت القاف التى تحدثوا عنها هى القاف اللهوية (المهموسة) التى نسمعها الآن من مجيدى القراء فى مصر، لوجب عليهم ضمها إلى أصوات الحلق، إذ هى فى النطق المذكور تقع فى منطقة بين منطقة الحاء والعين من جهة، ومنطقة الغين والخاء من جهة أخرى. إن هذه القاف من اللهاة. واللهاة بالمعنى العلمى الدقيق تقع بين منطقة العين والحاء (وسط الحلق) ومنطقة الغين والخاء (أدنى الحلق).

بهذا سلم لنا زعمنا أن ما وصفوه هو «الجاف» [G]، وهى من حيز الغين والخاء (والكاف والجيم القاهرية)، وهى مجهورة أيضا، وليس القاف اللهوية [q] المهموسة، وليس يخرج من اللهاة صوت آخر غيرها على الإطلاق فى العربية قديمها وحديثها على سواء .

ومهما يكن الأمر، فلنا هنا أن نتساءل: من أين جاءت هاتان الصورتان لنطق القاف (القاف اللهوية المهموسة والجاف القصية المجهورة) ؟ وما موقعهما فى التراث اللغوى العربى؟

يبدو أنه كانت هناك لهجتان فى القديم. إحداهما كانت توظف صورة القاف القصية المجهورة [الجاف: G]، وهى التى تنطبق عليها تمام الانطباق جملة وصوف القدماء (وبعض المحدثين)، كما ذكرنا سابقا، وهى أيضا تلك الصورة التى يشيع استخدامها فى اللسان الدارج الآن فى كثير من المناطق العربية. وقد ألمح إلى هذا الاحتمال ابن فارس فى الصاحبى (ص ٢٥)، حيث نسبها (أو ما يشبهها) إلى بنى تميم. يقول:

«فأما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف باللهاة حتى تغلظ جدا، فيقولون: القوم فيكون بين القاف والكاف. وهذه لغة فيهم. قال الشاعر:

ولا أگول لگدْر الگوم قد نضجت ولا أگـول لـباب الـدار مگفـول

فعبارته «يكون بين القاف والكاف» إنما يصدق على «الجاف» القصية [G]، لا على القاف اللهوية بالمعنى العلمى الدقيق [q]، ويؤيده كتابة هذه الصورة بالكاف فى هذا البيت، إذ لم يجد رمزا مناسبا لتصويرها، فلجأ إلى رمز الكاف، لأنها أقرب الأصوات إليها، بل هى نظيرها المهموس.

واللهجة الثانية كانت توظف القاف اللهوية المهموسة، وبها أخذ قراء القرآن الكريم أو جمهرتهم. وصار توظيفهم هذا سبيلا متبعا فى معاهد العلم والجامعات وما أشبه ذلك، ويقال إن جنوب اليمن يدرجون على استخدام هذه الصورة اللهوية المهموسة، كما يفعل قرّاء القرآن. ومن اللافت للنظر أن هؤلاء القوم اليمنيين ينطقون الجيم جيما قاهرية [g]، كما فى نحو go الإنجليزية، وهذا النطق للجيم يؤكد عدم استخدامهم للقاف القصية المجهورة، وإلا التبس الأمر، إذ هما صوتان متفقان نطقا (لا وظيفة) فى مجمل السمات والصفات، باستثناء ميل الجاف إلى التفخيم أحيانا.

ويأتى بعد ذلك عالم ثقة فيقرر بوضوح وجود هاتين اللهجتين فى القديم، يقول حفنى ناصف (مميزات لغات العرب – جـ ٢ ص ٣) إن «أهل بنى سويف ينطقون بها قافا صريحة كالقاف التى ينطق بها القراء والعلماء، وأهل المنيا ينطقون بها مشوبة بالكاف مثل ما ينطق بالجيم عوامّ

القاهرة، أى كنطق الإفرنج بحرف [g] إذا تلاه [a أو o أو u]. ثم عرضت هذا الاختلاف فى تلك المادة على المنقول عن قبائل العرب فوجدته موافقا حذو النعل بالنعل **للاختلاف بين قريش وغيرهم**، حيث كانت قريش تنطق بها **قافا خالصة وغيرها يشوبها بالكاف**».

إذن هما صورتان لهجيتان مقررتان فى القديم، وامتد أثرهما حتى الآن، وإن على مستويات لغوية مختلفة. إحداهما هى التى شغلت القدامى فى مجمل أعمالهم، وهى الجاف [G]، وثانيتهما هى ما استقرت صورة متبعة فى قراءة القرآن الكريم، وهى القاف اللهوية [q] .

وهناك صورة ثالثة لنطق القاف، نلاحظها الآن فى اللسان الدارج فى الحواضر المصرية ونحوها من بعض العواصم العربية، ونعنى بهذه الصورة نطق القاف **همزة خالصة**.

ويروى أنه كان لهذا النطق بالقاف همزة وجود فى القديم، وربما يؤيد ذلك ما ذكره أبو الطيب اللغوى (الإبدال جـ ٢ ص ٥٦١ – ٥٦٢ – ط دمشق ١٩٦٠) من أمثلة فيها التبادل فى النطق بين القاف والهمزة من نحو:

زهاق مائة وزهاء مائة أى قريب من المائة

والقفْز والأفْز أى الوثب

وقَشَبَه وأَشَبَه أى عابه.

وفى «الوسيط»: قشب فلانا بعيب نفسه = عابه به ، وقشبه بسوء = لطخه به. وفيه أيضا أشب فلانا بكذا = عابه به.

ففى هذه الأمثلة ونحوها ما يشير إلى أن نطق القاف همزة كان واقعا فى القديم، إما بوصفه لهجة أو بكونه مجرد إبدال بين الأصوات.

وهناك تفسير آخر له قبول من الناحية الفسيولوجية. يقال إن القاف كانت تنطبق أحيانا مهمَّزة (glottalization) أى مشوبة بهمز. وبمرور الزمن تلاشى الصوت الأصلى (القاف) وصار التهميز همزا خالصا، وامتدّ أثره حتى الآن، كما نلحظ فى نطق أهل المدن فى مصر وغيرها من البلاد العربية.

وإنا لنلحظ هذه الأيام نطق القاف غينا فى الألسنة الدارجة فى بعض مناطق السودان والعراق، ولكن هذا النطق – على ما نفهم – مقصور على تلك الكلمات الفصيحة التى دخلت عاميات هذه البلاد، من نحو:

الاستقلال الاستغلال – يقدر: يغْدر – القاهرة : الغاهرة

وفى رأينا أن القاف فى هذه الأمثلة ونحوها ليست القاف اللهوية المهموسة (الفصيحة)، وإنما هى «الجاف» القصية المجهورة، وربما يسوغ هذا التفسير، صدور «الجاف» والغين من حيز واحد، هو أقصى الحنك. ولافرق بينهما إلا أن الأولى (الجاف) وقفة انفجارية والغين احتكاكية.

ويقال : إن لهذه الصورة النطقية الرابعة للقاف أصلا فى القديم، بدليل ورود أمثلة فى التراث اللفظى يقع فيها التبادل بين القاف والغين من نحو:

غلام أقلف وأغْلف، أى لم يُختن

وقلقل الأرض وغلغل، أى ذهب فى الأرض.

يتبين لنا من كل هذا الذى مضى أن هناك أربع صور نطقية للقاف فى القديم والحديث، وإن كانت الصور تفترق فيما بينها من حيث نسبة الشيوع والذيوع، ومن حيث المستوى اللغوى الذى تنسب إليه.

هذه الصور الأربع هى:

١ - **القاف صوت لهوى وقفة انفجارية مهموس [q]**

٢ - **القاف صوت حنكى - قصى وقفة انفجارية مجهور [G]**

٣ - **القاف صوت حنجرى وقفة انفجارية (همزة) [ʔ]**

٤ - **القاف صوت حنكى قصى احتكاكى مجهور (غين) [γ]**

الصورة الأولى هى التى يجرى استعمالها فى العربية، كما ينطقها المتخصصون وقراء القرآن الكريم فى مصر، والصورة الثانية هى السائدة فى معظم اللهجات العامية فى البلاد العربية. ووجود هذه الصورة بهذه الكثرة فى هذه اللهجات يوحى بأنها أثر باق لنطق قديم. ذلك أن انتشارها فى هذه البيئات المختلفة يضعف كونها ابتكارا صوتيا محليا.

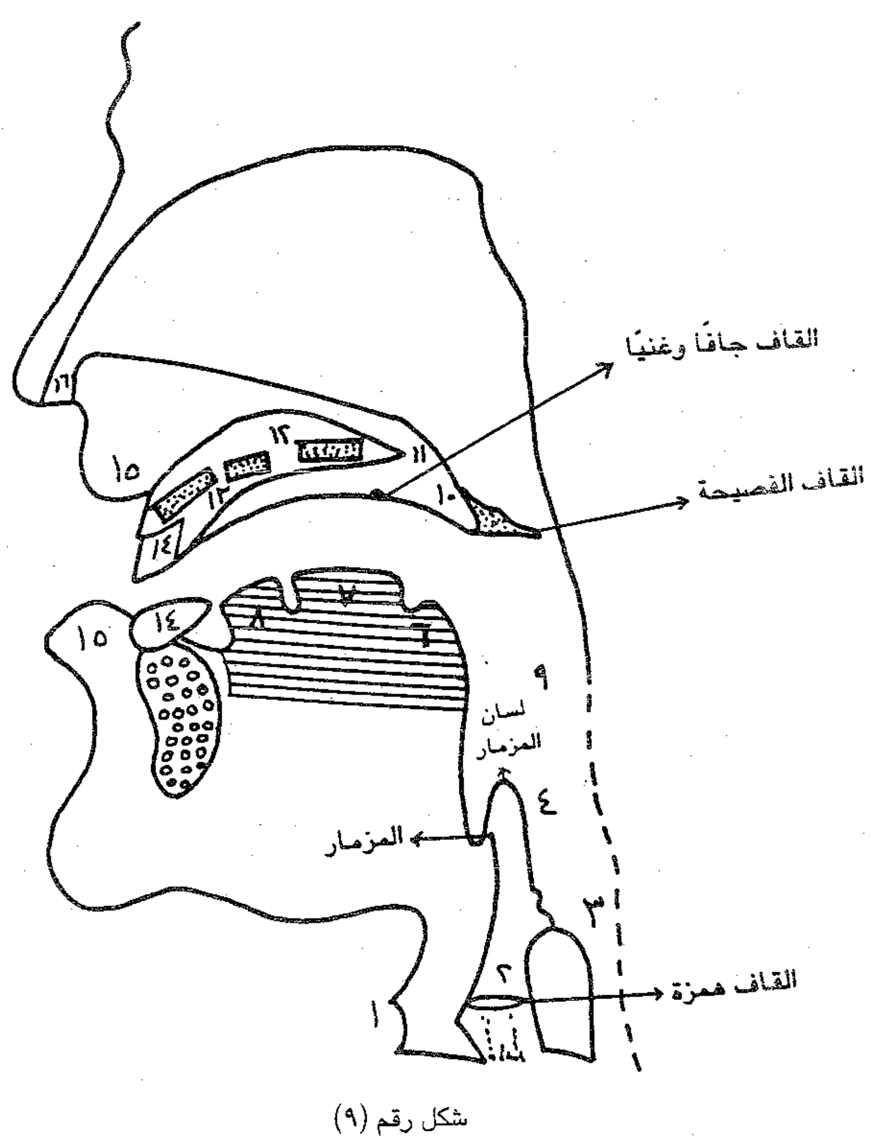
ومن هنا نستنتج أن هاتين الصورتين كانتا تدرجان على الألسنة جنبا إلى جنب باطراد فى القدم، وإن كانتا تنتميان إلى لهجات مختلفة، والصورة الأولى هى التى حظيت بالاستمرار على ألسنة القرّاء ونحوهم ممن يأخذون بنهجهم. وهى أيضا تلك الصورة التى فات على الدارسين فى القديم (وبعض المحدثين) تعرف حقيقتها وطبيعتها، فخلطوا فى وصفها واضطربوا (أو اضطرب معظمهم) فى هذا الوصف، كما سبق بيانه.

والصورة الثانية (الحنكية – القصية المجهورة) امتدت مسيرتها، وصار نطقها تقليدا عاما شائعا على معظم الألسنة الدارجة حتى اليوم فى كثير من البلاد العربية، شرقها وغربها على سواء. وهذه الصورة الثانية أيضا هى التى حظيت – فى رأينا – بوصف علماء العربية لها، حيث جاءت وصوفهم (فى مجملها) منطبقة تمام الانطباق على هذه الصورة.

أما نطق القاف همزة أو غينا (وإن كان له أثر قديم على ما يروى) فليس يطرد اطراد الصورتين الأوليين، فالنطق بالهمزة مقصور الآن على بعض العواصم والمدن العربية، والنطق بالغين مقصور على مفردات معينة فى لهجات معينة من الوطن العربى، على ما سلف ذكره.

ومهما يكن الأمر، فإن القول بأن نطق القاف همزة أو غينا كان له أثر من نوع ما فى القديم، قد يحتاج إلى مزيد نظر ومراجعة مناسبة للتراث اللغوى العربى، حتى تتبين الحقيقة.

وفيما يلى شكل يوضح نطق القاف بصورها الأربع فى جهاز النطق:



شكل رقم (٩)

جهاز النطق

١ – منطقة الحنجرة ٢ – الوتران الصوتيان ٣ – البلعوم ٤ – لسان المزمار
٥ – أصول اللسان ٦ – مؤخر اللسان ٧ – مقدم اللسان «وسط اللسان»
٨ – طرف اللسان ٩ – الحلق ١٠ – اللهاة ١١ – أقصى الحنك (اللين)
١٢ – وسط الحنك «الصلب» ١٣ – مقدم الحنك وأصول الثنايا
١٤ – الأسنان العليا والسفلى ١٥ – الشفتان ١٦ – فتحة الأنف

الهمزة :

تسد الفتحة الموجودة بين الوترين الصوتيين حال النطق بهمزة القطع، وذلك بانطباق الوترين انطباقا تاما، فلا يسمح للهواء بالمرور من الحنجرة، ثم ينفرج الوتران فيخرج الهواء فجأة محدثا صوتا انفجاريا.

فالهمزة صوت حنجرى وقفة انفجارية لا هو بالمهموس ولا بالمجهور.

والقول بأن الهمزة صوت لا بالمهموس ولا بالمجهور هو الرأى الراجح إذ إن وضع الأوتار الصوتية حال النطق بها لايسمح بالقول بوجود ما يسمى بالجهر أو ما يسمى بالهمس.

وهناك من الدارسين المحدثين من يرى أن الهمزة صوت مهموس[1]. ويبدو أنهم يقصدون بالهمس حينئذ عدم الجهر، وهو رأى غير دقيق، إذ هناك حالة ثالثة هى حالة وضع الأوتار عند نطق الهمزة العربية. ولنا أن نقول فى تفسير رأيهم هذا، إنهم لاحظوا المرحلة الثانية من نطق الهمزة ، وهى المرحلة التى تصاحب الانفجار. ففى هذه الحالة تكون الأوتار فى وضع الهمس. ولكن هذا السلوك منهم غير دقيق بالنسبة لطبيعة الهمزة، إذ الهمزة العربية لايتم نطقها بهذه المرحلة الثانية وحدها، وإنما تتكون وتتم بمرحلتين: المرحلة الأولى مرحلة انطباق الوترين، وفيها ينضغط الهواء من خلفهما فينقطع النفس ، والمرحلة الثانية مرحلة خروج الهواء المضغوط فجأة محدثا انفجارا مسموعا. وهاتان المرحلتان متكاملتان ولايمكن الفصل بينهما أو النظر إلى إحداهما دون الأخرى. ولنا أن نقول – على عكس ما يفترضون – إن

(١) من هؤلاء هيفنز الأمريكى فى كتابه General Phonetics والدكتوران عبد الرحمن أيوب وتمام حسان فى كتابيهما : أصوات اللغة ، ومناهج البحث فى اللغة ، بهذا الترتيب .

المرحلـة الأولى وهـى مـرحلـة قطـع النفس أهـم فـى تكـوين الـهـمـزة مـن المرحلة الثانية، ومن ثم كانت تسميتها همزة قطع، وفى هذه المرحلة الأولى تكون الأوتار فى وضع غير وضع الجهر والهمس معا.

أما آراء علماء العربية القدامى فى وصف الهمزة ففيها اضطراب وخلط. ومن جملة كلام هؤلاء العلماء يظهر الفرق بيننا وبينهم فى وصف الهمزة فى نقطتين اثنتين:

الأولى: تتعلق بموضع النطق ، والثانية خاصة ببعض صفات الهمزة.

أما النقطة الأولى فتتعلق بالمخرج، فهناك من التراث العربى رأيان مشهوران، **الأول** منهما هو رأى الخليل ومن لف لفه. فهؤلاء يرون أن الهمزة هوائية أو أنها من الجوف على حد تعبير بعضهم. ولم يقتصر هؤلاء – ومنهم الخليل – على هذا الوصف بل جمعوها مع حروف المد الثلاثة [واى] ونسبوها جميعا إلى هذا المخرج الذى سموه الهواء تارة والجوف تارة أخرى.

وبالنظر الدقيق فى جملة ما قاله هذا النفر بالنسبة لمخرج الهمزة يتضح أنهم مخطئون فى وضع الهمزة وفى تقدير وضع نطقها: فالهمزة ليست هوائية بالمعنى الذى أرادوا: (وهو كون الهواء يخرج حرا طليقا دون اعتراض حال النطق بها). لأن الهواء – كما ذكرنا سابقا – يقابل باعتراض تام فى منطقة الحنجرة، وذلك بانطباق الوترين الصوتيين . وليس صحيحا أيضا وضع الهمزة مع حروف المد، فهذه الأخيرة حركات طويلة، على حين أن الهمزة صوت صامت. وهذه الحروف الثلاثة – دون الهمزة – هى التى يصح وصفها بأنها من الجوف أو بأنها هوائية.

ويمكن تعليل هذا الخطأ الذى وقع فيه الخليل ومن تابعه بأنه حين نطقها لمعرفة طبيعتها لم ينطقها وحدها، وإنما نطقها متلوة بحركة، فبدت كما لو كان هواؤها حرا طليقا، على أن حرية الهواء إنما تنسب إلى الحركة المصاحبة للهمزة لا إلى الهمزة ذاتها. وهذا التعليل الذى نقدمه هنا ليس مجرد افتراض وهمى، وإنما هو فى حقيقة الأمر يستند إلى طريقة الخليل نفسه فى ذوق الحروف.

فقد جرت عادة الخليل عند نطقه للحروف أن يفتح فاه بالألف (أى الهمزة) ثم يأتى بالحرف المراد نطقه ساكنا هكذا: أب، أت مثلا، حين يريد نطق الباء أو التاء. ومعناه أنه فى حالة نطق الهمزة أتى بهمزتين: الأولى هى الهمزة التى يأتى بها مع أى حرف آخر، والثانية الهمزة التى يريد نطقها لمعرفة خواصها. واجتماع همزتين متتاليتين، والأولى منهما متحركة والثانية ساكنة - كما فى حالتنا هذه - أمر فيه ثقل، ومن ثم يحولون الهمزتين همزة ممدودة [آ]. وهذه الهمزة الممدودة هى فى واقع الأمر مكونة من همزة + ألف أى فتحة طويلة.

فكأن الخليل حين ذاق هذا المذاق أحس بحرية الهواء. وهذا صحيح، لكن هذه الحرية منسوبة إلى الجزء الثانى الذى أصبح الآن ألفا أى فتحة طويلة وهو حركة لا همزة.

ولنا أن نفسر كلامه أيضا بأنه (عند وصف مخرج الهمزة) كان يشير إلى حالها عند النطق بالتسهيل. فالتسهيل (وإن كنا لاندركه تماما) يعنى ضياع الوقفة التى يبدأ بها عند نطق الهمزة، ومن ثم ينفذ الهواء الصادر من الصدر أو ما سماه «الجوف»، بحرية كما يحدث فى حروف المدّ.

ومهما يكن الأمر فإن قصة الهمزة عند الخليل فيها شيء من الاضطراب. إنه ينسبها إلى الهواء كما رأيت ويضعها مع حروف المد فى موضع واحد. ولا يبدأ بها الألفباء الصوتية، كما كان المفروض والمتوقع منه؛ وإنما بدأ بالعين.

وقد حاول بعضهم أن يعتذر عن الخليل فى عدم بدء الألفباء بالهمزة كما كان الواجب، وكما تؤكد ذلك طبيعة الهمزة. يروون عن ابن كيسان أنه قال: سمعت من يقول: سئل الخليل : لمَ بدأت بالعين ولم تبدأ بالهمزة، فقال: «لم أبدأ بالهمزة لأنه يلحقها النقص والتغيير والحذف ولا بالألف لأنها لا تكون فى ابتداء كلمة ولا فى اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة. ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها. فنزلت إلى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين»[1].

وهذا الاعتذار فى رأينا غير مقبول، ويبدو أنه موضوع لتبرئة الخليل من الخطأ، ودليلنا على ذلك أن الخليل عامل الهمزة معاملة حروف المدّ، ولم ينسبها إلى أى حيز محدد. أضف إلى ذلك أن الخليل فى بعض أقواله ينسب الهمزة إلى أقصى الحلق، فيقول: «وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق»[2]. وهذا كله دليل اضطراب الرجل فى إدراك طبيعة هذا الصوت وخواصه.

أما الرأى الثانى بالنسبة لموضع نطق الهمزة، فهو رأى غالبية اللغويين القدامى، ومنهم سيبويه وابن جنى. قرر هؤلاء أن الهمزة تخرج

(١) المزهر للسيوطى ، ج١ ص ٩٠ .

(٢) كتاب العين للخليل ، تحقيق د. عبد الله درويش ، ج١ ص ٥٨ .

من أقصى الحلق. وهو قول غير دقيق، إذ الهمزة ليست من الحلق وإنما هى من الحنجرة وهى سابقة للحلق. ويمكن قبول رأيهم هذا بافتراض واحد. هو أنهم ربما أطلقوا الحلق على منطقة واسعة تشمل الحنجرة وغيرها، وتكون الحنجرة حينئذ هى المقصودة «بأقصى الحلق».

والملاحظ على كل حال أن هؤلاء العلماء المذكورين سابقا لم يشيروا إلى الحنجرة فى كلامهم، ولم يعدوها من مخارج الأصوات العربية[1]. وربما يرجع ذلك إلى عدم إدراكهم لهذه المنطقة المهمة فى تكوين الأصوات، فوقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ عند وصف بعض الأصوات، ومن أهمها الهمزة، كما رأيت.

وهناك على كل حال إشارات متناثرة هنا وهناك فى أعمال بعضهم تنبئ عن إدراكهم (نوع إدراك) موضع النطق بهمزة القطع. من هؤلاء سيبويه نفسه الذى يبدو أنه عدّل من رأيه السابق: أو أنه فسر عبارة «أقصى الحلق» تفسيرا أوضح وأدق حيث قال: (الكتاب جـ٢ ص ١٦٧)..الهمزة «نبرة فى الصدر تخرج باجتهاد، وهى أبعد الحروف مخرجا»، فهذا الوصف ينبئ بوضوح لا عن المخرج الصحيح لنطق الهمزة فقط بل وعن طبيعة نطقها ، كذلك فهى أبعد الحروف مخرجا (فليست إذن حلقية) وهذا صحيح ، وهى أيضا «نبرة فى الصدر» أى وقفة انفجارية. وتعبيره «بالصدر» بدلا من الحنجرة تعبير مقبول، إذ إن المرء عند نطقه للهمزة نطقا صحيحا يشعر بضغط فى الصدر، إذ هو مصدر الهواء الذى من شأنه أن يتكيف وقوفا أو خروجا حسب طبيعة الصوت المعين. وفى حالة

(١) انظر : مبحث «الهمزة» فى كتابنا «دراسات فى علم اللغة» ، حيث يتضح لنا هناك أن لابن سينا معرفة بالحنجرة ووظيفتها فى عملية النطق .

الهمزة يقف الهواء فى الحنجرة التى غاب عن سيبويه التصريح باسمها. وهذا الوصف بمضمونه التام ملحوظ فى أعمال بعض الخالفين، وإن بعبارات مختلفة، يقول ابن سينا (أسباب حدوث الحروف ص ٩) «وأما الهمزة فإنها تحدث من حفز قوى من الحجاب الحاجز وعضل الصدر». وفى «البرهان» (جـ ١ ص ١٦٨)، يقول الزركشى: «إن مخرج الهمزة من الرئة وإنها أعمق الحروف». ومثله تقريبا قول البلوى (ألفباء ص ٣١٧): «إنها من مخرج أقصى الأصوات، وهى من موضع النفس».

والنقطة الثانية التى لم يوفق فيها العرب فى وصف الهمزة هى الحكم عليها بأنها مجهورة. والهمزة – كما قررنا سابقا – لا يمكن وصفها بالجهر. وربما أوقعهم فى هذا ما سبق أن ألمعنا إليه من أنهم – فيما نظن – كانوا ينطقونها متلوة بحركة، والحركة مجهورة كما نعرف، فأثر جهر الحركة على نطق الهمزة فوصفوها هى الأخرى بالجهر تجاوزا.

على أنا نلاحظ أنهم على الرغم من وصفهم للهمزة بأنها صوت مجهور لم يذكروها ضمن حروف القلقلة، وهى حروف – باتفاقهم جميعا – مجهورة.

خلاصة كل ما تقدم فى هذا الفصل أن الأصوات الوقفات الانفجارية بحسب نطقنا العربية الآن، هى: الهمزة – القاف – الكاف – التاء – الدال – الطاء – الضاد – الباء. والجيم القاهرية هى الأخرى وقفة انفجارية وهى النظير المجهور للكاف.

وقد عرض العرب لهذه الأصوات وسموها الأصوات الشديدة، وعرفوها تعريفا يدق فهمه ، ولكن أمثلة الأصوات الشديدة التى ذكروها تشير إلى أنهم يقصدون بالشديدة تلك الأصوات التى سميناها الوقفات الانفجارية.

وهذه الأصوات الشديدة - كما سبق أن ذكرنا - مجموعة فى قولهم «أجدت طبقك» . وهكذا نرى أن مواطن الاتفاق بيننا وبينهم أكثر من مواضع الخلاف، إذ ينحصر الخلاف فى نقطتين :

١ - لم يذكروا الضاد ضمن الأصوات الشديدة، على حين عددناها نحن وقفة انفجارية. وسلوكهم هذا بالنسبة للضاد يدل على أنها كانت تنطق فى القديم بصورة تخالف ما نعهده اليوم. وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك وأيدناه بأدلة من كلامهم كهذا النص الذى أورده سيبويه، خاصا بموضع نطق الضاد (وغيرها): «لولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس من موضعها شىء غيرها».

٢ - فى رأيهم أن الجيم صوت شديد (وقفة انفجارية)، على حين أنه صوت من نوع معين، بحسب نطقنا الحاضر. إنه - كما سنعرف فيما بعد بشىء من التفصيل - صوت مركب، أو وقفة احتكاكية. (انظر «الجيم») .



الفصل الثانى

الأصوات الاحتكاكية المركبة



وبه مبحثان :

المبحث الأول : الأصوات الاحتكاكية

المبحث الثانى : الأصوات المركبة (الوقفات – الاحتكاكية)

المبحث الأول
الأصوات الاحتكاكية

تتكون الأصوات الاحتكاكية بأن يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين فى موضع من المواضع ويمر من خلال منفذ ضيق نسبيًّا يُحدث فى خروجه احتكاكًا مسموعًا . والنقاط التى يضيق عندها مجرى الهواء كثيرة متعددة ، تخرج منها الأصوات الاحتكاكية الآتية :

الفاء والثاء والدال والظاء والسين والزاى والصاد والشين والخاء والغين والحاء والعين والهاء . وإليك وصفًا مختصرًا لكل صوت منها :

الفاء :

يتم نطق هذا الصوت بوضع أطراف الثنايا العليا على الشفة السفلى ولكن بصورة تسمح للهواء أن ينفذ من خلالها ومن خلال الثنايا مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف ، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية خلال النطق بالفاء .

فالفاء إذن صوت أسنانى شفوى احتكاكى مهموس .

وليس للفاء نظير مجهور فى اللغة العربية ، ومن ثم يخطئ كثير من العرب فى نطق صوت [v] فى لغة كالإنجليزية مثلا فى نحو victory ، فينطقونه مهموسًا (لا مجهورًا) متأثرين بعاداتهم النطقية للفاء العربية المهموسة .

وقد حسب بعض القدامى صوت الفاء من أصوات التفشّى (كالشين والضاد فى رأى) وهو رأى مقبول ؛ حيث إن الهواء عند النطق به يشتد احتكاكه نسبيا محدثا حفيفا عريضا .

الثاء :

يوضع طرف اللسان حال النطق بهذا الصوت بين أطراف الثنايا العليا والسفلى بصورة تسمح بمرور الهواء من خلال منفذ ضيق ، فيحدث الاحتكاك ، مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف مع عدم تذبذب الأوتار الصوتية .

فالثاء – إذن – **صوت مما بين الأسنان احتكاكى مهموس** .

وقد تحول صوت الثاء فى اللغة العامية إلى تاء كما فى نحو : تعلب، وإلى سين كما فى نحو سورة بالنطق العامى ، وكثير من المثقفين ينطقونه سينًا ، وهو خطأ ظاهر وليس من النادر أن نسمع هذا الخطأ من بعض معلمى اللغة العربية والمشتغلين بها فى معاهد العلم المختلفة ، وقد يمتد هذا الخطأ إلى آى الذكر الحكيم نفسه على ألسنة جمهرة من الناس مثقفين وغير مثقفين . وتحويل الثاء سينًا خطأ من جانبين : خطأ صوتى ، وهو ظاهر . وخطأ دلالى ؛ إذ ينتج عنه الخلط بين معانى بعض الكلمات كما فى نحو : سلاسة ، وثلاثة . وشتان بين المعنيين .

الذال :

هو النظير المجهور للثاء ، فلا فرق بينهما إلا أن الأوتار الصوتية تتذبذب فى حال النطق بالذال ، ولا تتذبذب فى نطق الثاء .

فالذال إذن : **صوت مما بين الأسنان . احتكاكى . مجهور .**

وقد تحول هذا الصوت فى اللغة العامية إلى دال كما فى نحو : دهب ، وقد ينطق زايا على ألسنة الكثيرين من جميع الفئات ، ومن بينهم المثقفون وبعض المعلمين . كما هو الحال فى نطقهم لصوت الثاء ، وليس من النادر وقوعهم فى هذا الخطأ عند قراءتهم للقرآن الكريم . وهذا النطق بالذال زايا يؤدى إلى الخطأ فى معانى بعض الكلمات بالإضافة إلى الخطأ فى النطق . قارن مثلا : ذَلّ × زَلّ فكلاهما مختلف عن الآخر نطقًا ومعنى .

الظاء :

يتكون هذا الصوت بالطريقة التى يتكون بها صوت الذال ، ولكن اللسان مع الظاء يرتفع مؤخره تجاه أقصى الحنك الأعلى ، كما يرجع إلى الخلف قليلا ، فيحدث الإطباق (التفخيم) ، كما هو الحال فى نطق الصاد والضاد والظاء .

فالظاء إذن صوت مما بين الأسنان احتكاكى مجهور مفخم (مطبق) .

وينطق هذا الصوت خطأ أحيانا ، كما لو كان زايا مفخمة أى بتغيير فى موضع النطق به. وهذا هو النطق السائد فى الألسنة العامية الدارجة فى مصر وغيرها . ولكنا نلاحظ مع ذلك أن بعض العرب ينطقون هذا الصوت فى لهجاتهم العامية ، نطقا صحيحا مقبولا ، كما هو الحال مثلا فى نطق العراقيين والكويتيين بوجه خاص. ولكن هذا النطق للظاء حينئذ كثيرا ما يختلط بنطقهم للضاد ، كما هو معروف.

ويميل بعضهم وبخاصة النساء إلى ترقيق صوت الظاء فينطقونه

ذالا أو زايا ، وهو خطأ صوتى ودلالى معا ، كما يتضح من نطق كلمة مثل «ظل» فى صورة «ذلّ» أو «زلّ» .

ويبدو من جملة التراث اللغوى القديم وقوع تبادل بين الذال والظاء فى بعض الكلمات .. جاء فى «تاج العروس» قول الزَّبيدى : «ثم رأيت ابن عصفور ، قال فى «المقرب» إنها (أى الظاء) تبدل من الذال المعجمة ، يقال: تركته وقيذا ووقيظا ، حكاه يعقوب بن السكيت . قلت . ونقل ذلك عن «كراع» أيضا . قلت : وكذلك أرض جلذاء وجلظاء ، كما فى نوادر الأعراب».

فهذا النص يفيد أن تبادلا بين الصوتين له وجود فى القديم ، وإن كان هذا التبادل يتحقق بتفخيم الذال فتصير ظاء ، على العكس من التبادل السابق المحقق فى ترقيق الظاء إلى ذال ، كما هو الحال الدارج على ألسنة بعض الناطقين الآن .

ويروى صاحب «لسان العرب» عن ابن جنى قلب الظاء طاء ، وإن كان ذلك على ألسنة «النبط» . يقول ابن منظور «قال ابن جنى : اعلم أن الظاء لا يوجد فى كلام النبط ، فإذا وقعت قلبوها طاء . ولهذا قالوا البرطلة وإنما هو ابن الظل ، وقالوا ناطور وإنما هو ناظور فاعول من نظر ينظر . قال ابن سيده : كذا يقول أصحابنا البصريون» .

أما التبادل بين الظاء والضاد والخلط بينهما فى النطق فله واقع مؤكد فى القديم، وله آثار باقية فى الحديث كذلك ، أما الخلط بين الصوتين فى القديم فأمره مشهور معروف ، وقد امتد هذا الخلط أحيانا إلى الكتابة . وقد صنعت بحوث وألفت كتب مستقلة لمحاولة بيان الفروق بينهما ، على ما سبق بيانه عند الكلام على الضاد . وأما فى

الحديث فهناك آثار لهذا الخلط بين الصوتين على ألسنة العامة فى مصر، كما فى نحو «ضُهر» و«ظُهر» (بمعنى وقت الظهيرة) و«ضَهر» و«ظَهْر» (بمعنى خلف الإنسان مثلا) .

وقد أشرنا فيما سبق إلى رأى علماء العربية من أن الظاء خاص بلغة العرب، وليس صوت الضاد ، بوصفهم ، وإذا صحت المقولة «العربية لغة الضاد» فإنما تنطبق على الضاد التى ينطقها المصريون ونحوهم الآن .

السين :

ينطق هذا الصوت بأن يعتمد طرف اللسان خلف الأسنان العليا ، مع التقاء مقدمته باللثة العليا مع وجود منفذ ضيق للهواء فيحدث الاحتكاك . ويرفع أقصى الحنك حتى يمنع مرور الهواء من الأنف . ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به.

فالسين صوت لثوى احتكاكى مهموس .

وقد يصيب هذا الصوت شىء من الإجهار ، فينطق زايا أو ما يقرب منها ، كما فى نحو «أزدل» الستار .

الزاى :

هو النظير المجهور للسين ، **فهو صوت لثوى احتكاكى مجهور .**

وكثيرا ما يقع التبادل بينه وبين الذال فى نطق العامة وبعض المثقفين – كما ذكرنا سابقا – وهو خطأ محض .

الصاد :

يتكون هذا الصوت بالطريقة التى تتكون بها السين ، مع فارق

الإطباق (التفخيم) الناتج عن ارتفاع مؤخر اللسان تجاه الحنك الأعلى ورجوعه قليلا إلى الخلف.

فالصاد صوت لثوى احتكاكى مهموس مفخم (مطبق) .

ونلاحظ أن علماء العربية (وابن جنى بالذات) وضعوا السين والزاى والصاد فى مرتبة تلى مخرج الدال والتاء والطاء من ناحية الأمام . وجاء وصفه لهذه الأصوات بما يوهم أن الصاد والزاى والسين أصوات سنية تحدث عن طريق وضع طرف اللسان خلف الأسنان أو بينها ، على حين يذكر أن الطاء والتاء والدال أصوات أسنانية لثوية . وهذا التقرير يختلف عما نشعر به الآن ، كا يختلف عما يمارسه قراء القرآن الكريم فى مصر ، فنطقنا للسين والزاى والصاد يأتى قبل – لا بعد – التاء والدال والطاء من جهة الخلف.

والصاد – كالسين – يعرض لها الإجهار فى بعض السياقات . وقد أشار القدامى إلى هذه الظاهرة ، كما فى نحو «أزدق» (أصدق) . ويميل بعض الناس إلى ترقيقها فتصبح سينا ، كما فى نطق بعض السيدات وغيرهن .

الشين :

يتكون هذا الصوت بأن يلتقى طرف اللسان أى مقدمه بمؤخر اللثة ومقدم الحنك الأعلى، بحيث يكون هناك منفذ ضيق لمرور الهواء، ولكن هذا المنفذ أوسع من المنفذ الموجود فى حال صوت كالسين مثلا، وفى هذه الحالة يكون كل الجزء الأساسى من جسم اللسان مرفوعًا نحو الحنك. ولا تتذبذب الأوتار الصوتية عند النطق به .

فالشين صوت لثوى حنكى احتكاكى مهموس .

والنظير المجهور للشين هو الجيم السورية . وقد يتحول صوت الشين إلى هذه الجيم عندما يصيبه الإجهار فى بعض السياقات فى الأداء غير الدقيق فى النطق ، كما فى نحو «أشغال» [ʔajɣaal] .

والشين أحد أصوات ثلاثة عدها علماء العربية أصوات وسط الحنك وهذه الأصوات هى : الشين والجيم والياء (نصف الحركة) وهو تقدير سليم لأن ثلاثتها من حيّز واحد واسع نسبيا، وبعضهم يسمى هذه الأصوات الثلاثة الأصوات الشجْرية ، نسبة إلى شجْر الفم أى مفترقه .

الخاء :

يرتفع أقصى اللسان حال النطق بهذا الصوت : بحيث يكاد يلتصق بأقصى الحنك ، وبحيث يكون هناك فراغ ضيق ليسمح للهواء بالنفاذ مع حدوث احتكاك مسموع ، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به .

فالخاء صوت من أقصى الحنك احتكاكى مهموس .

الغين :

هو النظير المجهور للخاء ، **فهو صوت من أقصى الحنك احتكاكى مجهور ،** وللخاء والغين حالات من التفخيم والترقيق ، ولكن الملاحظ أن غالبية الناطقين يأتون بهما مرققين فى كل الحالات ، وهو نطق غير دقيق . (انظر ص ٤٠٤) .

الحاء :

يضيق المجرى الهوائى فى الفراغ الحلقى عند النطق بالحاء ، بحيث يحدث مرور الهواء احتكاكًا ، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به .

فالحاء صوت حلقى احتكاكى مهموس .

الحاء من الأصوات العربية ذات الصعوبة على غير العرب ، وكثير منهم ينطقونها كما لو كانت خاء ، أو هاء .

العين :

هو النظير المجهور للحاء . فالفرق إذن هو تذبذب الأوتار الصوتية مع العين وعدم ذبذبتها مع الحاء .

فالعين إذن صوت حلقى احتكاكى مجهور .

والعين فى اللغة العربية تمثل مشكلة حقيقية لغير العرب . ومن النادر أن يستطيع واحد منهم نطقها بصورة صحيحة . والحق أن تكوين العين فيه غموض لم يتضح لنا تفسيره بعد ، وهى أقل الأصوات الاحتكاكية احتكاكًا .

ولعل هذا هو ما دعا علماء العربية إلى عدم ذكرها مع الأصوات الرخوة (الاحتكاكية) وعدها واحدًا من تلك الأصوات التى سموها الأصوات المتوسطة (انظر ص ٣٥٣) .

الهاء :

تتكون الهاء العربية «عندما يتخذ الفم الوضع الصالح لنطق حركة (كالفتحة مثلا) ويمر الهواء خلال الانفراج الواسع الناتج عن تباعد الصوتين بالحنجرة محدثًا صوتًا احتكاكيًا . يرفع الحنك اللين ، فلا يمر الهواء من الأنف ولا تتذبذب الأوتار الصوتية [١] .

---

(١) علم اللغة للدكتور محمود السعران ، ص ١٩٥ .

فالهاء إذن صوت حنجرى احتكاكى مهموس» .

هذه هى الأصوات الاحتكاكية بحسب نطقنا للعربية الآن . وقد تكلم علماء العربية القدامى عن مجموعة من الأصوات سموها الأصوات الرخوة (الاحتكاكية) وهذه الأصوات الرخوة عندهم هى :

الفاء والثاء والذال والظاء والسين والزاى والصاد والضاد والشين والخاء والغين والحاء والهاء .

ونلاحظ هنا نقطتين سبقت الإشارة إليهما فى مواضعهما .

الأولى : أنهم عدوا الضاد رخوة (احتكاكية) على حين أنا عددناها وقفة انفجارية ، وفقا لنطقنا الحالى . وسلوكهم هذا يومئ إلى أن ضادهم كانت تختلف عن ضادنا الحالية ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

الثانية : أنهم لم يعدوا العين من الأصوات الرخوة على العكس مما فعلنا نحن ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

ولقد رأى العرب رأيًا يخالف ما ذكرناه بالنسبة لمخارج الغين والخاء والعين والحاء والهاء (وكلها احتكاكية) والهمزة (وهى وقفة انفجارية) .

فهذه الأصوات الستة كلها تخرج من الحلق فى نظرهم ، وهى المعروفة عندهم بالمصطلح المشهور «الأصوات الحلقية» . ويوضح هذا ما جاء على لسان بعضهم محددًا الأصوات الحلقية عندهم حين يقول :

همز فهاء ثم عين حاء   مهملتان ثم غين خاء

أما البحث الحديث – كما رأيت – فيؤكد أن هذه الأصوات الستة تتوزع على ثلاثة مواضع مختلفة من جهاز النطق ، وإن كانت هذه المواضع يجاور بعضها بعضا.

فالهمزة والهاء من الحنجرة ، والحنجرة جزء من جهاز النطق سابق للحلق.

والعين والحاء من الحلق وهو فى موضع تال للحنجرة .

والغين والخاء من أقصى الحنك وهو يقع فى منطقة تالية للحلق من جهة الأمام .ومعنى هذا أن الأصوات الحلقية صوتان اثنان فقط ، هما العين والحاء .

ويمكن تفسير ما ذهب إليه العرب بواحد من وجهين :

الأول : ربما لم تسعفهم دقة التقدير ، فلم يستطيعوا التفريق بين مخارج هذه الأصوات .

الثانى : – وهو الأقرب إلى التفسير – لعلهم أطلقوا الحلق على منطقة أوسع من تلك المنطقة المعينة المعروفة بيولوجيا بالحلق والمحصورة بين الحنجرة وأقصى الحنك . أو بعبارة أخرى ، ربما أطلقوا المصطلح «الحلق» على تلك المنطقة الكبيرة التى تشمل .

١ – الحنجرة .

٢ – الحلق .

٣ – وأقصى الحنك . على ضرب من التوسع والمجاز .

وربما سوغ لهم هذا الصنيع ما رأوه من اشتراك هذه الأصوات الستة فى بعض السمات الصوتية الصرفية . من هذه السمات وأشهرها أن هذه الأصوات تفضل حركة الفتح على الكسر والضم فى بعض السياقات الصوتية . كما أنه يجوز تحريكها بدلا من السكون إذا وقعت

عينًا فى صيغ صرفية معينة ، فيقال نهر وبحر بفتح الهاء والحاء بدلا من نهر وبحر بسكونهما.

ويؤيد هذاالاحتمال كذلك أنهم عادوا فقسموا «الحلق» إلى ثلاث مناطق جزئية ، وإن كانت كلها لم تزل فى حدود تلك المنطقة التى سموها الحلق .

هذه المناطق الجزئية هى :

١ – أسفل الحلق وأقصاه ومنه الهمزة والهاء .

٢ – أوسطه ومنه العين والحاء .

٣ – أدنى الحلق ومنه الغين والخاء .

فكأن أسفل الحلق (وأقصاه) يناظر الحنجرة ، وأوسط الحلق يناظر الحلق بالمعنى الدقيق ، وأدنى الحلق يقابل أقصى الحنك . وإذا ما قبل هذا الافتراض صح لهم ما صنعوا وكانوا على صواب فيما فسروا .

ولكن هذه التفسير (وهو إطلاق الحلق على ما يشمل الحنجرة والحلق وأقصى الحنك) كان يوجب على هؤلاء القوم أن يعدوا القاف من أصوات الحلق أيضًا . ذلك لأن القاف – كما ننطقها اليوم – تخرج من اللهاة . واللهاة كما هو معروف – تقع فى نهاية الحنك الأقصى ، أى أن القاف أسبق مخرجًا من الغين والخاء ، وهى حينئذ واقعة فى دائرة تلك المنطقة الواسعة التى أطلقوا عليها الحلق. فإذا ما عددنا الغين والخاء حلقيتين كان علينا أن نعد القاف حلقية من باب أولى.

على أنه يمكن الإجابة عن هذا الاعتراض بما سبق أن ألمعنا إليه

وهو : ربما كانت القاف فى نطقهم تختلف عن نطقنا . فلعلهم كانوا ينطقون «جافًا» أى صوتًا قصيًا مجهورًا . وهذا الصوت موقعه موقع الغين والخاء أو من موقع تال لهما . وهذا التفسير الأخير مفهوم من كلامهم ، وتؤيده غالبية النصوص الواردة فى وصف القاف. وبهذا الافتراض يكون كلامهم سليمًا صحيحًا ، وإن اختلفت مصطلحاتهم مع المصطلحات المستعملة الآن .

وعلى الرغم من صحة هذه التخريجات التى أوردنا فإننا نشير على المتعلمين أن يتبعوا التقسيم الحديث بالنسبة لهذه الأصوات الستة ، إذ نسبتها جميعًا إلى منطقة الحلق قد توقع بعضهم فى الوهم فيظن أنها تخرج جميعًا من نقطة واحدة ، على حين أن الأمر ليس كذلك بحال من الأحوال كما سبق بيانه فى موضعه .

المبحث الثانى
الأصوات المركبة
(الوقفات - الاحتكاكية Affricates)

من المعروف أن الأصوات التى تعرف بالوقفات stops ، قد يكون لها مقابل احتكاكى ، أى صوت يصدر من ذات الحيّز، مع اختلاف واضح فى كيفية مرور الهواء . فالكاف والخاء فى اللغة العربية مثلا يصدران من حيّز واحد ، هو أقصى الحنك ، ولكن الهواء عند النطق بالكاف يقف وقوفا تاما ، بحيث لا يسمح بمرور الهواء ألبتة ، لالتقاء أى التصاق أقصى اللسان بأقصى الحنك ، وفجأة وبسرعة ينفصل العضوان بعضهما عن بعض انفصالا تاما فيخرج الهواء منفجرا. ومن ثم كان وصف الكاف بأنه صوت وقفة انفجارية plosive stop . وهذه هى الحال فى كل الأصوات الوقفات الانفجارية .

أما الخاء ففى نطقه يقترب أقصى اللسان من أقصى الحنك ، بحيث يكون بينهما فراغ نسبى ضيق ، يسمح بمرور الهواء ، فيحدث احتكاك مسموع .و من ثم كان صوت الخاء صوتا احتكاكيا خالصا fricative .

ومعلوم أيضا أن انفصال الأعضاء بعضها عن بعض فى أى موقع من مواقع الوقفات stops يتفاوت فى السرعة والبطء عند النطق بهذه

الأصوات . فإذا كان الانفصال سريعا مفاجئا ، انطلق الهواء محدثا انفجارا ، تحقيقا للنطق الكامل للوقفة . ويُنعت الصوت الصادر حينئذ بأنه وقفة انفجارية . أما إذا كان الانفصال بطيئا تسرب الهواء ، محدثا احتكاكا مسموعا ويصدر صوت آخر احتكاكى مصاحب للوقفة . الصوت الذى يصدر بهذه الطريقة يسمى «وقفة – احتكاكية» أو مركبا Affricate فالصوت المركب نوع من الوقفات يحدث فى تكوينه أن يتبع إطلاق الوقفة مباشرة بالاحتكاكى المقابل له فى موقعه . وهذا الصوت الاحتكاكى الناتج عن تسرب الهواء يعد جزءا جوهريا من الوقفة الاحتكاكية أو الصوت المركب ؛ إشارة إلى تكوينه من صوتين متلازمين، لا فصل بينهما .

وعندنا فى اللغة العربية صوت واحد يتكون بهذه الطريقة ، هو الجيم التى ننعتها نحن بالجيم الفصيحة ، بقصد التمييز ، وهى ما نسمعها اليوم من قراء القرآن الكريم والمتخصصين الملتزمين فى مصر .

ويتم نطق هذا الصوت بأن يرتفع مقدم اللسان تجاه مؤخر اللثة ومقدم الحنك حتى يتصل بهما محتجزا وراءه الهواء الخارج من الرئتين، ثم بدلا من أن يفصل عنهما فجأة (كما هو الحال فى نطق الوقفات الانفجارية) ، يتم الانفصال ببطء ، فيعطى الفرصة للهواء بعد الوقفة أن يحيك بالأعضاء المتباعدة ، محدثا احتكاكا شبيها بما يسمع من الجيم الشامية أو هو هى .

فالجيم الفصيحة إذن صوت مركب الجزء الأول منه صوت قريب من الدال والثانى صوت كالجيم الشامية. ولكنهما يكونان وحدة واحدة. ويوصف علميا بأنه :

صوت لثوى - حنكى مركب (وقفة - احتكاكية) مجهور .

وقد جاء فى وصف الصوت المركب affricate قول الثقات من رجال الأصوات .

"affricate is a speech sound composed of a stop followed by a homorganic fricative" [1]

(الصوت المركب مكوّن من وقفة متبوعة بصوت احتكاكى من موقع نطقى واحد) .

ولعلماء العربية رأى يختلف قليلا أو كثيرا عما قررنا لصوت الجيم.. يظهر الخلاف فى أساسه فى حسبانهم الجيم صوتا شديدا (أى وقفة) ، ومن ثمّ ضمّوها إلى بقية أخواتها الشديدة المجموعة فى قولهم «أجدك طبقت» أو «أجدت طبقك» . أما نحن فقد صنّفناها صوتا مركبا (أى وقفة احتكاكية) ، وصنفنا الباقيات من هذه المجموعة (أى باستثناء الجيم) وقفات انفجارية، كما سبق بيانه (فى الفصل الأول من هذا الباب). فالجيم الفصيحة كما ننطقها اليوم صوت ينحبس الهواء عند بداية النطق به ، ويعقبه مباشرة مرور بطىء للهواء ، فيحدث احتكاك مسموع فى المخرج نفسه ، ففى أوله وقفة وفى نهايته احتكاك . أما بقية أخواتها (فى رأيهم أى الهمزة والقاف والكاف والدال والتاء والطاء والباء) فيحدث عند النطق بها جميعا وقوف تام للهواء ، وفجأة وبسرعة يخرج الهواء منفجرا . ومن هنا كان وصفنا للجيم بأنها شديدة (وقفة) احتكاكية ، وللباقيات بأنها أصوات شديدة (وقفات) انفجارية . فالجيم وحدها من قبيل والباقيات من قبيل آخر ، وإن تماثل القبيلان فى مطلق الوقفة عند بداية النطق .

---

(١) انظر New Horizon ، ص ٣١٧ و ٣٢٤ .

ولنا أن نتساءل عن سرّ الخلاف فى هذا الحكم وفى رأيهم فى موقع الجيم فى أصوات العربية من حيث كيفية مرور الهواء عند النطق بها . هناك ثلاثة تفسيرات محتملة نظريا وأداء واقعيا .

التفسير الأول : يزعم بعضهم أن القدامى قد خانهم التوفيق فى الحكم على الجيم وفى حسبانها واحدا من أصوات «أجدت طبقك» . وهذا رأى لا نميل إليه ، ولا يصلح تفسيرا مقبولا فى نظرنا .

التفسير الثانى : هو احتمال قريب من الصحة ، وله ما يؤيده من النظر العلمى والواقع النطقى قديما وحديثا . لعلهم كانوا يشيرون إلى الصورة الثانية من نطق الجيم ، وهى كونها صوتا قصيا وقفة انفجارية، كتلك التى نسمعها الآن فى القاهرة ونحوها من الحواضر . وهى الصورة التى سميناها نحن «الجيم القاهرية» بقصد التمييز بينها وبين غيرها من الصور النطقية الأخرى للجيم فى العربية قديما وحديثا . وهذه الصورة الثانية كان لها وجود فى القديم، على ما سيأتى بيانه فيما بعد. وهذه الصورة ذاتها هى التى يسوغ ضمها إلى أصوات «أجدت طبقك» لاشتراك الجميع فى الخاصة الأساسية من حيث كيفية مرور الهواء عند النطق بها . وهذه الخاصة هى وقوف الهواء وقوفا تاما متبوعا بانفجار، تحقيقا للنطق الكامل بالصوت . ورمزها الكتابى فى الألفباء الصوتية العالمية هو [g] ، كما نحو "go" الإنجليزية .

ولكن يعكر الصفو على هذا التفسير أن سيبويه وغيره عند إشاراتهم إلى هذه الصورة الثانية [g] ، عدّوها من الحروف غير المستحسنة . يقول سيبويه: (الكتاب، جـ٢ ص ٤٠٤) «من الحروف غير المستحسنة... والجيم

التى كالكاف...» ويقول صاحب «ارتشا ف الضَّرب» (حـ١ ص ٨): «... وفروع تستقبح وهى ... وجيم ككاف ، فرع من الجيم الخالصة ، يقولون فى رُجل ركُل ، يقربونها من الكاف» . وقد صرّح بهذا المعنى نفسه كثير غيرهما . وواضح أن الجيم التى كالكاف فى هذين النصين هى الجيم القصية الوقفة الانفجارية [g] إذ هى أخت الكاف فى كل الخواص ، ما عدا الجهر فى الجيم والهمس فى الكاف . وهى فى رأى الجميع صورة مستقبحة ، الأمر الذى ينفى أنها الجيم فى «أجدت طبقك» . ومن ثم كان علينا أن ندرج إلى تفسير آخر .

التفسير الثالث : وهو المعتمد عندنا ، استنادا إلى جملة ما قرروا بالنسبة لهذا الحرف (الجيم) ، وما قدّموا له من وصوف .

الجيم فى «أجدت طبقك» (الحروف الشديدة = الوقفات) هى الجيم التى صنفناها سابقا صوتا مركبا = وقفة احتكاكية [dj] كما ينطقها القراء الآن. ولكن وضعها مع هذه الحروف الشديدة فى سلّة واحدة، فيه شيء من التسمح أو التجاوز الذى يمكن تفسيره وتسويغه بصورة من الصور .

ذلك أن أصوات «أجدت طبقك» كلها (ومن ضمنها الجيم) يبدأ نطقها بوقوف الهواء فى مواضع النطق ، ولكن فى حالة الجيم وحدها تنفصل أعضاء النطق بعضها عن بعض ببطء ، فيتسرب الهواء محدثا صوتا احتكاكيا فى ذات الموضع. وهو صوت يعد جزءا لا يتجزأ من نطق الجيم ، فتكون النتيجة صوتا مركبا (وقفة احتكاكية) ، مكونًا من وقفة واحتكاك متلازمين . أما فى الباقيات من «أجدت طبقك» فيحدث الانفصال سريعا فينفذ الهواء سريعا مفاجئا محدثا انفجارا، لتحقيق

النطق الكامل، ومعنى هذا أن هذه الأصوات الثمانية جميعا تشترك فيما بينها بخاصة وقوف الهواء عند بداية النطق ، ولكنها تختلف جذريا فى كيفية مرور الهواء بعد ذلك ، على ما ذكرنا. ومعنى هذا أيضا أنها جميعا (ومنها الجيم) وقفات بالنسبة لبداية النطق بها ، ولكنها تختلف فيما يعقب ذلك من كيفيات مرور الهواء . ومن هنا كان التفريق بين القبيلين: الجيم وقفة - احتكاكية ، والباقيات وقفات انفجارية .

بهذا التفسير الذى أوردنا يسوغ لنا الحكم بأن للعرب مندوحة فى حسبان الجيم صوتا شديدا (وقفة) ولكن على أساس النظر إلى بداية النطق دون نهايته ، المتمثلة فى الصوت الاحتكاكى الذى يكمل النطق بالصوت . فكأنهم تأثروا بالجزء الأول من نطق الجيم ، وهو الجزء الذى يتمثل فى انحباس الهواء عند بداية النطق، كما هو الشأن فى بقية الأصوات الشديدة (الوقفات) ، ومعناه حينئذ أنهم أهملوا - أو لم يلتفوا إلى - الجزء الثانى وهو الانتقال من الانحباس إلى الاحتكاك .

هذا التفسير قد توصلنا إليه مؤخرا بعد طول نظر وتدقيق واف فى جملة ما قالوا حول صوت الجيم ، وعدلنا بذلك عن رأى لنا (ولغيرنا) سابق يشوبه التجاوز بل الخطأ ، حيث كنا نفسّر مصطلحهم «الشديد» بالانفجارى و«الشدة» بالانفجار ، وهو تفسير لا ينطبق بحال على الجيم الفصيحة ، ثم تبينت لنا الحقيقة ، وهى أن مقصودهم بهذين المصطلحين ما درجنا عليه الآن من تفسيرهما الصحيح «بالوقفة» . وبهذا صحّ لهم ما قالوا ، وتبيّن تجاوزنا فى التفسير الأول للمصطلحين ، إذ إن الانفجارى والانفجار إنما ينطبقان على الجيم القاهرية ، وهى ليست المعنية فى هذا السياق ، إذ عدّوها صوتا غير مستحسن ، كما سبق بيانه.

وربما يؤيد هذا التفسير الذى اخترنا ، وهو أن الجيم فى «أجدت طبقك» هى «الوقفة – الاحتكاكية» [dj]، وليست الجيم الوقفة الانفجارية [g] ربما يؤيد هذا إشارات لهم متناثرة هنا وهناك تدعم هذا الزعم الذى زعمنا . من أهم هذه الإشارات ما يأتى :

١ – حسبانهم مخرجها من مخرج الياء والشين ، أى من وسط الحنك أو أدنى من ذلك قليلا ، وضمهم لها مع هذين الصوتين فى سلة واحدة، وأطلق عليها بعضهم الأصوات «الشجْرية» (أى شجْر الفم وهو مفترقه) . وليس مقبولا فسيولوجيا ولا أداء أن يكون المقصود هنا هو الجيم القصية (من أقصى الحنك) ، كما نسمعها الآن فى القاهرة ونحوها، ويؤكد هذا الذى نقول ما رآه ابن يعيش من أن «الجيم أخت الشين فى المخرج» (المفصل حـ ١٠ ص ١٣٨) . وهو هنا أدق من غيره فى تعيين مخرجها ، إذ هو بالفعل من مخرج الشين أو أقرب إليها من الياء.

٢ – كونها من مخرج الشين أو حيّزها أدى إلى الخلط بين الصوتين أحيانا، حيث تنطق الجيم شينا أو ما يقرب منها . وقد لاحظ أهل العربية ذلك فى القديم، كما فى قول سيبويه حين يتكلم عن الأصوات غير المستحسنة ، «... والجيم التى كالشين» . ومثله ما جاء فى «ارتشاف الضرب» (جـ ١ ص٩) عند الحديث عن الفروع المستقبحة، وهو قوله : «... وجيم كشين فرع عن الجيم الخالصة» وهذا النطق وإن عدَّ مستقبحا أو غير مستحسن لا ينطق بحال إلا على الجيم الوقفة **الاحتكاكية** [dj] . ذلك أن هذا النطق بالشين أو ما يشبهها يعنى أن المتكلم فى هذه الحالة أكتفى بالجزء الثانى من بنيتها وهو الاحتكاك . وهذا بالقطع لا علاقة له بالجيم الوقفة **الانفجارية** [g] .

٣ – يؤكد هذا الاحتمال (احتمال النطق بالجزء الثانى لا الأول) ما نص عليه الجزرى من وجوب الاحتفاظ بإخراجها من مخرجها الصحيح، حتى لا تختلط بالشين، وهو يعنى بذلك – فى رأينا وجوب مراعاة جزئها الأول (الوقفة)؛ إذ هو أساس النطق الصحيح بهذا الصوت المركب . يقول صاحب «النشر»: «والجيم يجب أن يتحفظ بإخراجها من مخرجها، فربما خرجت من دون مخرجها فينتشر بها اللسان فتصير ممزوجة بالشين، كما يفعله كثير من أهل الشام ومصر» (النشر فى القراءات العشر).

وعلى الرغم من أن هذه النصوص الأخيرة تؤكد أنهم يشيرون إلى الجيم الوقفة – الاحتكاكية ، المضمومة إلى أصوات «أجدت طبقك» – على الرغم من هذا، فإننا نرى أن التعبير «بالشين» فى أقوالهم السابقة تعبير فيه شىء من التجاوز ؛ إذ يبدو لنا أن المقصود بالشين هنا هو الجيم الشامية [j]، فهى التى تمثل الجزء الثانى من نطق الجيم الفصيحة. فربما غاب عنهم إدراك هذه الحقيقة، أو ربما التبس عليهم الأمر لشدة العلاقة بين الشين والجيم الشامية ، إذ هما صوتان متفقان فى كل السمات والصفات، باستثناء الهمس فى الشين والجهر فى الجيم الشامية . ولنا أن نستخلص هذا التفسير نفسه من قول صاحب النشر «... فتصير ممزوجة بالشين ، كما يفعله كثير من أهل الشام ومصر» . إن الدارج على ألسنة الشوام هو الجيم (الشامية) لا الشين ، وهذا واقع ملموس . أما نسبته للمصريين فهذا أمر مشكوك فيه .

ومهما يكن الأمر ، فقد استقر لنا – من جملة ما رأوا – أن المقصود بالجيم فى «أجدت طبقك» هى الجيم الفصيحة [dj] الدارجة على ألسنة

قراء القرآن الكريم فى مصر، وليست الجيم القصبية الانفجارية المنعوتة فى أعمالنا بالجيم القاهرية، بقصد التمييز.

وينبغى أن يدرك القارئ أن كل ما أشرنا إليه من أقوالهم وأثبتنا صحته ينطبق على صورة واحدة من صور نطق الجيم فى القديم والحديث. وهذه هى الصورة الأولى، التى عُقد لها عنوان المبحث الحالى (الأصوات المركبة – الوقفات – الاحتكاكية). وهناك صور أخرى لنطق الجيم فى العربية ولهجاتها فى الماضى والحاضر، سنأتى عليها فى الصفحات التالية.

صور أخرى لنطق الجيم:

أولا: الجيم القصية الوقفة الانفجارية [g]

يتم نطق هذه الصورة بانحباس الهواء عند أقصى الحنك انحباسًا تامًّا، ثم فجأة وبسرعة يخرج هذا الهواء منفجرا، وتتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق بها.

فهذه الصورة صوت قصىّ وقفة – انفجارية مجهور. ورمزه فى الكتابة الدولية هو [g]، كالصوت الأول فى "go" الإنجليزية.

وهذه الصورة أيضا هى أخت الكاف نطقا، ولا فرق بينهما إطلاقا إلا الجهر فى [g] والهمس فى الكاف. وكثيرا ما يتبادلان نطقا، فتصير [g] كافا بإهماسها (أى صيرورتها مهموسة)، فيقولون فى «جمل كمل». وقد روى أن لهذا النطق بالجيم أثرا فى القديم، على ما يروى بعضهم، من نحو قول سيبويه عن الأصوات غير المستحسنة «... **والجيم التى كالكاف**». ومثله قول ابن الجزرى فى «النشر» عند الكلام على الجيم

«وربما نبا بها اللسان فأخرجها ممزوجة بالكاف ، وهو موجود كثيرا في بوادى اليمن» وجاء فى «ارتشاف الضرب» عند الكلام على ما سماه فروعا مستقبحة «وجيم ككاف فرع عن الجيم الخالصة ، يقولون فى «رجُل ركُل» يقربونها من الكاف ، وعدّ سيبويه هذا حرفا واحدا لأن النطق لا يختلف ، وراعى ابن جنى الأصل فعد ذلك حرفين ، وتبعه ابن عصفور وابن مالك». (الارتشاف جـ١ ص٨) .

وربما حدث (ويحدث) العكس ، أى تنطق الكاف جيما [g] ، بإجهار الكاف ، أى صيرورتها مجهورة ، ويؤيد هذا الاحتمال فى القديم قول سيبويه : «من الحروف غير المستحسنة الكاف التى بين الجيم والكاف» (الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٤) ويؤيد هذا الاحتمال تعليق «الشنتمرى» على مقولة سيبويه هذه بقوله «هما جميعا (أى الكاف والجيم[g]) شىء واحد» (أى فى النطق). وورد مثل هذا القول فى كلام صاحب «ارتشاف الضرب»، إذ يقول: «وفروع تستقبح وهى كاف كجيم، فرع عن الكاف الخالصة وهى لغة فى اليمن ، كثيرة فى أهل بغداد . يقولون فى كمل جمل» .

وصيرورة الكاف جيما [g] ملحوظة فى نطق كثير من الناس الآن ، وإن فى سياقات صوتية معيّنة فى الكلام غير المتأنى . فيقولون «أجبر [agbar] فى أكبر [akbar]، بإجهار الكاف ونطقها جيما خالصة أو ما يشبه أن يكون كذلك .

كل هذه الآثار (وغيرها) والملاحظات السابقة تدل بكل تأكيد على أن الجيم كانت تنطق (وماتزال) جيما قصية وقفة انفجارية ، كما نسمعها الآن فى القاهرة ونحوها من الحواضر المصرية وغيرها . وليس

من المقبول أن تكون الجيم هنا هى الجيم الوقفة الاحتكاكية التى يأخذ بها قراء القرآن الكريم فى مصر . ذلك أنه من المستحيل فسيولوجيا أن تصير جيم القراء هذه كافا ، و أن تتحول الكاف إلى هذه الجيم نطقا . إنهما مختلفان أشد الاختلاف فى موضع النطق فى الصفات .

وهناك آثار أخرى تؤكد ما نقول من أن الجيم القاهرية كان لها وجود فى القديم ، وإن لم يلتفوا إلى وصفها وصفا دقيقا . يظهر ذلك فى مثل قول بعضهم «وجيم بين القاف والكاف والجيم» . إنها هنا – فى رأينا – هى الصورة التى نتكلم عنها (القاهرية) ؛ إذ إن كونها بين القاف والكاف ينبئ عن ذلك بشيء من النظر الدقيق ؛ ذلك أن قربها من الكاف واضح ، كما سبق أن بينا ، إذ لا فرق بينهما إلا الجهر فى الجيم والهمس فى الكاف . أما أنها قريبة من القاف فتفسيره أن القاف هنا ليست القاف اللهوية [q] المهموسة التى يسير عليها القرّاء ، وإنما هى «الجاف» [G] بنطق أهالى الصعيد ونحوهم . ومعلوم للعارفين ألاّ فرق فى النطق بين الجيم القاهرية و«الجاف» ، وإن اختلفتا فى الوظيفة ، أى دور كل منهما فى البنية الصوتية.

وقد أدى هذا القرب بل التماثل بين الجيم «والجاف» فى النطق إلى الخلط فى الكتابة قديما وحديثا . من ذلك ما ورد فى البيان والتبين (حـ١ ص٣١ – السندوبى) من أن كلمة فالوذج تكتب أحيانا بالجيم وأحيانا أخرى بالقاف = «فالوذق» . فالقاف فى هذا المثال هى «الجاف» ، ولكن الكاتب لم يجد رمزا للدلالة على هذا النطق . وقد لاحظنا هذا الخلط نفسه فى بعض اللافتات التجارية فى السعودية ، حيث يكتبون «أوميجا» (Omiga) «أوميقا» إشارة إلى نوع من الساعات المشهورة .

وأشد من هذا الخلط ما وقع ويقع فى بعض أسماء الأعلام فى منطقة الخليج العربى . فالعلم «جاسم» أصله «قاسم» بالقاف الفصيحة، فنطقوه على عادتهم «بالجاف» ولم يجدوا لهم رمزا إلا الجيم التى تحولت فى نطقهم فى نهاية المطاف إلى الجيم المركبة (الوقفة الاحتكاكية) [dj]، على عاداتهم فى نطق الجيم العربية .

وهكذا نصل إلى نتيجة واضحة ، هى أن الجيم «القاهرية» كان لها وجود فى القديم. وربما كانت لهجة من اللهجات، قليلة الذيوع والشيوع، فحسبوها صوتا غير مستحسن ، وركّزوا انتباههم واهتمامهم على الصورة الأوسع انتشارا واستخداما، وهى الجيم المركبة [dj] المضمومة إلى أصوات «أجدت طبقك» .

وهنا يبرز تساؤل مهم يحتاج إلى إجابة واعية واثقة : أهما صوتان يتبادلان نطقا فى المستوى اللغوى الواحد ، أم أنهما صورتان نطقيتان لوحدة صوتية واحدة ، توزّعتا على الناطقين ، كل يخبرها ويأتى بها على منوال ما درج عليه من العادات النطقية ؟ إنهما بالقطع ليسا صوتين مستقلّين أو بينهما تبادل، وإنما هما صورتان لشىء واحد ، اختلف الناس فى ترجمته نطقا ،. وهذا يعنى أن إحدى الصورتين هى الأصل وأن الأخرى مجرد تطور لها فما هذا الأصل وما قصة هذا التطور ؟

القول فى الأصل :

هناك فى الآثار التاريخية واللغوية ما يفيد بوضوح إلى احتمال كون الأصل فى الجيم هو الجيم المسمّاة حاليا بجيم القاهرة [g] بقصد التمييز . وهى بهذا الوصف :

صوت قصىّ وقفة انفجارية مجهور .

ويؤيد زعمنا ما يرويه الثقات العارفون باللغات السامية ، حيث يقررون أن هذا الصوت هو الأصل فى اللغات السامية . وليست العربية بدعا فى ذلك ، فهى بنت من بناتها ، بل هى أصل الساميات جميعا ، على ما يروى بعضهم . يقول «ليتمان» :

«نحن نعرف أن نطق هذا الحرف الأصلى كان [gim] (g) ، كما هو الآن فى مصر وكما كان ويكون فى اللغات السامية الباقية . مثلا كلمة «جمل» فى العبرية gámal وفى السريانية Gamal مع الألف التى هى أداة التعريف ، وفى الحبشية gamal . ويوجد فعل gamálu أى رحم فى الأكادية».

ثم يدرج بعدُ إلى القول بأن هذا الصوت القصى الوقفة الانفجارية قد تحول فى اللغة العربية إلى صوت لثوى حنكى وقفة احتكاكية (مركب) [dj] يقول :

«فى الابتداء تغير نطق gim [g] فصار ǧim[dj] قبل حركة الكسر فقط.. لفظت الـ gim عند أهل الحجاز ǧim [dj] إذا وقعت قبل كل الحركات أى الفتحة والضمة والكسرة ، وكان هذا النطق نطق القرشيين فى زمن النبى، فصار نطق القرآن الشريف » [١] .

ويستدل هذا الباحث نفسه على ما يقول **بالنسبة للغة العربية** بإيراد أمثلة متعددة من التراث العربى تفيد هذا التغيّر أو التطور . يقول «قد روى عند النحويين (كمل فى جمل وركل فى رجل – وركب فى رجب – وكبهة فى جبهة) . وعلى الأرجح فى هذه الكلمات يوجد النطق الأصلى

---

(١) د. أنو ليتمان – مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) المجلد العاشر ، الجزء الأول سنة ١٩٤٨ ص١–٢ .

يعنى الجيم المصرية والشامية العامة ، ولكن النحويين كتبوا كافا لعدم الإشارة للنطق الصحيح»[1] . يعنى حتى لا تنطق جيما مركبة [dj] إذا كتبت برمزها الأصلى (ج) .

ونحن نأخذ بهذا الرأى وندعمه بأقوال للدارسين العرب فى القديم وبأمثلة واقعية من اللغة فى القديم والحديث . أما فيما يتعلق بأقوالهم فى هذا الشأن فقد ذكرنا فيما سبق جملة منها تؤكد وجود الجيم القاهرية فى القديم ، وإن حسبوا هذه الجيم حرفا غير مستحسن أو مستقبحا ، كما فى قول شيخهم سيبويه «وجيم ككاف» وتبعه آخرون كثيرون . وكون الصوت مستقبحا أو غير مستحسن لا ينفى وجوده ، بل يؤكِّده ، وإن حكموا بهذا الحكم الذى رأوا .

أما الأمثلة الواقعة فى القديم التى تدل بوضوح على هذا النطق للجيم فهى أكثر من أن تحصى ، منها ما ذكره «ليتمان» مرويًّا عن بعض النحاة وما أوردناه فيما مضى مرويّا عنهم . ونزيد الأمر تأكيدا الآن بتقديم أمثلة لها دلالاتها الخاصة فى إثبات أن نطق الجيم جيما قاهرية كان له حظ من الاستعمال فى البيئات العربية القديمة .

ذكروا فى خبر أبى الأعور السلمى إذ قال لبنى «عك» : يا عك ، بركا برْك **الكمل**. وفى رسالة الغفران «أن أحدهم نادى «حُجرا» بقوله «ياحكر». ومن هذا القبيل ، - وأهم منه فى رأينا - قراءة بعضهم «حتى يلك الكمل» بالكاف (كتابة) فى مقابل «حتى يلج الجمل» (بالجيم) .

فهذه الأمثله الأخيرة أوقع فى الاستدلال على وجود هذا النطق

---

(١) السابق ص ٣٠ .

للجيم (الجيم القاهرية) . إذ إنها تعنى انتشار هذه الظاهرة ، حتى جاوزت ملاحظة اللغويين إلى طوائف أخرى من الأدباء والقراء .

أما كتابة هذه الجيم الأصلية [g] برمز الكاف ، فيمكن تفسيره بوجه من الوجهين التاليين :

تحاشوا كتابتها برمزها الأصلى [ج] ، حتى لا تنطق بالجيم المتطورة عنها [dj] أى جيم القراء فى مصر ، فكتبوها بالكاف ، حتى لا يفوت عليهم الغرض ، وكتابتها بالكاف أمر سائغ مقبول فى عمومه ؛ إذ هما (الجيم القاهرية والكاف) صوتان متفقان فى المخرج ومعظم الصفات . كلاهما من أقصى الحنك، وكلاهما وقفة انفجارية (شديدة برأيهم) ، ويختلفان فقط فى الجهر فى الجيم والهمس فى الكاف . وهذا التفسير نفسه صالح لتفسير احتمال آخر ، هو أن الجيم قد تنطق كافا بالفعل ، كما نصّوا هم أنفسهم على ذلك ، وقد أشرنا إلى هذا الأمر فيما سبق. وتبقى الحقيقة فى كلا الأمرين ثابتة مؤكّدة، وهى أن الجيم فى الحالين هى الجيم القصية (القاهرية) ؛ إذ هى التى ينطبق عليها التفسيران المذكوران .

وكتابة هذه الجيم بالكاف أمر معقول ومقبول ، كما قررنا . لقد كان هذا هو الاستعمال السائد فى كتابة اللغة التركية عندما كانت تكتب بالرموز العربية، قبل تحويلها إلى رموز لاتينية فى عهد كمال أتاتورك سنة ١٩٢٧ م . ففى اللغة التركية نوعان من الجيم ، أحدهما ينطق كما تنطق جيم القاهرة ، وهذه كانوا يكتبونها بالكاف . أما الجيم الأخرى فكانت تكتب بالرمز العربى التقليدى [ج] .

٢ – من المحتمل أنهم كتبوها بالجاف الفارسية [كَـ] ، وضاعت الشرطة بمرور الزمن أو أهملها النساخ فى الكتابة ، ومعلوم أن الجيم التى نتكلم عنها لها شبه قريب بالجاف الفارسية نطقا .

وهذا التفسير الأخير يمكن أن نعتمده فى تفسير أمثلة من نحو قولهم: «جراب السيف» و«قراب السيف»، وما رواه الطبرى (جـ ١ ص ٢٩٢) بقوله: «وقرئ الجمل كالقمل» بالجيم فى حالة والقاف فى حالة أخرى فى المثالين ، فالرأى عندنا – كما سبق أن ذكرنا – أن القاف هنا ليست القاف اللهوية المهموسة، وهى قاف قراء القرآن الكريم فى مصر، وإنما هى «**الجاف**» القصية المجهورة التى درج عليها لسان العامة فى صعيد مصر وغيره من بلادنا. وواضح للعارفين أن لا فرق بين الجيم القاهرية وهذه الجاف نطقا، وإن كان هذا الصوت الأخير يميل إلى التفخيم.

أما فى اللسان العربى الحديث فإنا نلحظ أن جيم القاهرة قد ذاعت وشاعت وسيطرت على الاستعمال اللغوى العام والخاص، فى حواضر مصر ونحوها. وهى الصورة النطقية التقليدية المختارة عند الكثيرين من أهل اليمن، شماله وجنوبه على سواء، وبخاصة بين القبائل ذات الأصول المذحجية والحميرية [١].

كل هذا الذى مضى يشير إلى تأكيد زعمنا من أن الجيم كانت تنطق فى البدء كالجيم القاهرية، وهى الأصل فى الاستعمال العربى والسامى فى

(١) ومن الجدير بالذكر أن الذين يدرجون على نطق الجيم القاهرية ، لا ينطقون القاف **جافا** منعا للبّس ، وإنما ينطقونها إما همزة كما فى حواضر مصر ، وإما قافا فصيحة (لهوية مهموسة : قاف القراء) كما فى اليمن . ونلاحظ كذلك أن الذين ينطقون القاف **جافا** (كما فى الصعيد) لا يستعملون الجيم القاهرية وإنما يدرجون على استعمال الجيم الفصيحة [dj] ، جيم القراء ، منعا للّبس .

عمومه، كما يشير إلى أنه كانت هناك صورتان من النطق لهذا الصوت فى فترة من الزمن، وبخاصة عند تقعيد اللغة. وربما كانت هذه الازدواجية فى النطق سببا فى اضطراب العرب فى وصف الجيم وتعرف حقيقتها.

إنهم تارة يقدمون وصفا ويذكرون خواص لا تنطبق إلا على الجيم الفصيحة [dj]، جيم القراء، وتارة أخرى ينصرفون إلى ذكر صفات وسمات لا تنطبق إلا على الجيم القاهرية [g] . فهم بالنسبة للحالة الأولى وضعوا الجيم فى حروف «أجدت طبقك» وعدوه واحدا منها. وهذا النهج – كما قررنا سابقا – إنما ينطبق على الجيم الفصيحة. ويؤكد ذلك عبارات لهم صريحة، لا تخرج عن هذه السبيل. من ذلك قول شيخهم سيبويه «والجيم التى كالشين» وقول صاحب «الارتشاف» «... وجيم كشين فرع عن الجيم الخالصة...» وغير هذا كثير مكرور معاد فى أقوال الثقات منهم. والتشبيه بالشين (وإن كان نطقا غير مستحسن فى رأيهم) نص فى الإشارة إلى هذه الصورة من النطق، إذ هما من مخرج واحد، كما قرروا هم أنفسهم، وضموا إليهما الياء.

ونراهم من جانب آخر يقرنون الجيم **بالكاف**، كما فى قول سيبويه نفسه «... وجيم ككاف» وهذه العبارة بنصها ردّدها الخالفون من بعده. وكون الجيم تنطق كالكاف (وإن كان نطقا غير مستحسن عندهم) لا ينصرف بحال إلا إلى الجيم القصية المسماة جيم القاهرة، فهما (الجيم القاهرية والكاف) من مخرج واحد، ولهما ذات السمات والصفات باستثناء الجهر فى الجيم والهمس فى الكاف، كما قررنا ذلك أكثر من مرة فيما سبق.

ومهما يكن الأمر، فما زال زعمنا أن الأصل فى الاستعمال العربى (أو السامى فى عمومه) هو الجيم القصية الجارية على ألسنة المصريين الآن وبعض جهات اليمن [g] مازال هذا الزعم صالحا للقبول، استنادا إلى ما رواه – ويرويه – التاريخ اللغوى من أقوال وإشارات وأمثلة متناثرة هنا وهناك فى أعمالهم تفيد حقيقة ما نقول. ونضيف: أليس وقوع هذا النطق فى جهات متعددة فى العالم العربى **الآن** يعدا أثرا من آثار نطق قديم؟ بل، إنه كذلك فى رأينا.

أما الصورة الثانية، ونعنى بها الجيم المركبة (الوقفة – الاحتكاكية) [dj] فهى متطورة عن الجيم القصية **الوقفة الانفجارية** [g].

قصة هذا التطور:

يقرر الثقات العارفون من الدارسين أن الأصوات الوقفات stops محتمل صيرورتها وقفات – احتكاكية – وذلك إذا انفصلت الأعضاء الناطقة بعد الوقفة بعضها عن بعض ببطء فيتسرب الهواء محدثا صوتا **احتكاكيا** فى ذات الموقع، فتصبح الوقفات وقفات احتكاكية، أى أصواتا مركبة affricates .

ونزعم (وتؤيدنا الشواهد الكثيرة التى أوردناها سابقا) أن هذا ما حدث للصورة الأولى من النطق بالجيم. وهى الصورة الموصوفة بأنها صوت قصى وقفة انفجارية، كما يخبرها أهل القاهرة ونحوهم. يبدو أنه (فى بداية التطور) وقع انفصال الأعضاء عند نطق هذه الصورة ببطء، فأحدث الهواء الخارج احتكاكا مسموعا، **مكونا** مع الوقفة صورة أخرى، هى الجيم **المركبة** أو المسماة بالفصيحة، بقصد التمييز.

ومعناه بعبارة أخرى أن [g] الوقفة الانفجارية صارت [dj] الوقفة – الاحتكاكية. فالأولى عند النطق بها يخرج الهواء بعد الوقفة فجأة وبسرعة محدثا انفجارا، والثانية يتسرب الهواء بعد الوقفة ببطء محدثا احتكاكا.

ويقال (وهو مقبول وله مسوغاته فى رأينا) إن هذا التحول حدث فى البدء ، عند وقوع الجيم متلوة بحركة الكسر . ثم تطور الأمر وشاع وذاع حتى أصبح عادة نطقية فى جميع المواقع ، أى بقطع النظر عن نوع الحركة التالية لها، سواء أكانت كسرة أم فتحة أم ضمة .

وحدوث هذا التحول فى البدء مع الكسرة بالذات له مسوغ فسيولوجى. ذلك أن الكسرة صوت أمامى والجيم صوت قصى. فانتقال العملية النطقية من الأقصى إلى الأدنى يعطى فرصة لتسرب الهواء الذى من شأنه حينئذ أن يحدث الاحتكاك، وبخاصة إذا كان هذا الانتقال بطيئا. ويصحب هذه العملية زحزحة الوقفة **القصية** (التى من شأنها أن تكون انفجارية) إلى مخرج أمامى نسبيا، فتصير – لثوية – حنكية، كما تصبح وقفة – احتكاكية – أو صوتا مركبا ، والنتيجة النهائية لكل ذلك أن تتحول [g] إلى [dj].

وهذه العملية النطقية (وما تبعها) ليست بدعا فى أصوات العربية قديمها وحديثها. ولها وجود مؤكد فى غيرها من اللغات ، حدث هذا فى القديم فى نطق الكاف المتلوة بكسر، وبالتحديد فى كاف المؤنث المخاطب. وقد أدركه الدارسون العرب بعبقريتهم، وأشاروا إلى ما نتج عن ذلك بما سمّوه «**الكشكشة**» . وما هذه الكشكشة فى رأينا إلا الاحتكاك المذكور. وكانت الحصيلة النهائية فى هذه الحالة صيرورة الكاف وقفة

احتكاكية، مع انتقال مخرجها وهو أقصى الحنك إلى حيز أدنى نسبيا ، وصارت لثوية – حنكية، شأنها في ذلك كله شأن الجيم (القاهرية)، وصارتا صوتين مركبين (وقفتين – احتكاكيتين) ويرمز إليهما في هذه الحالة بالرمزين [dj] و [tʃ]. ومعلوم أن هذه الجيم والكاف صوتان متماثلان فى كل شيء، ما عدا الجهر فى الأولى والهمس فى الثانية، ومن اللافت للنظر أن هذا التماثل ظل ثابتا بعد تطورهما من جهر وهمس وانتقال إلى حيز آخر من أحياز النطق.

ونلاحظ أن هذا التطور الذى أصاب الكاف المتلوة بكسرة قد امتد أثره إلى اللسان الدارج فى بعض المناطق العربية، بل وأكثر من ذلك، صار تقليدا متبعا فى حالات كثيرة يعز علينا الآن حصرها، حيث لم يعد هذا التطور مقصورا على الكاف المتبوعة بالكسر، كما هو الحال فى نطق الكويتيين وبعض الفلسطينيين.

وفى مصر الآن ، نسمع من بعض السيدات التاء والدال (الوقفتين الخالصتين) مشوبتين بالاحتكاك، إذا وقعتا قبل الكسر، كما فى نحو «أختى لا دى ولا دى) وليس من النادر أن تسمع منهن فى نطق الضاد أيضا فى هذا السياق نفسه (الإتباع بكسرة) .

وحقيقة الأمر أن الأصوات الوقفات (stops) فى **جملتها** قابلة لهذا التطور، أى صيرورتها أصواتا وقفات – احتكاكية، إذا أتبعت بكسرة أو ما فى حيزها من الحركات. يقول «كانتينو» عند الكلام على ظاهرة «الكشكشة» أى الاحتكاك الذى يصيب الوقفات: «ليس تطور كهذا بنادر . فنرى فى كثير من اللغات أن الحروف الشديدة (الوقفات) الحنكية، من

شأنها أن تتغير، فتبدو «تش أو شْ ، أو تس س» إذا كانت بجوار حركات من وسط الحنك أو من أدناه» .

وهذا يعني – بالنسبة لأصوات العربية – أن أصوات «أجدت طبقك» (الحروف الشديدة = الوقفات) قابلة لهذا التطور في سياق الكسرةونحوها، باستثناء الهمزة والقاف والباء. فهذه الثلاثة الأخيرة ليست حنكية: الهمزة حنجرية والقاف لهوية والباء شفوية.

وهذا القول صحيح، إذ نسمع الآن ترجمة نطقية واقعة لهذا التطور في نطق بعض الناس وبخاصة السيدات في التاء والدال والطاء (والضاد المصرية فهي وقفة) . هذا بالإضافة إلى الكاف التي حظيت في القديم والحديث بهذا التطور وملاحظة الدارسين له وكثرة الكلام عنه.

أما الجيم – وهي في رأينا المثل الواضح، بل وربما الأصل في هذا التطور – فيبدو أن علماء العربية في القديم لم يلتفتوا إلى التطور الذي أصابها، أي إلى صيرورتها وقفة – احتكاكية بعد أن كانت وقفة خالصة [g ——◄ dj] . وحسبوا الصورة المتطورة أصلا، وعدوا ما تطورت عنه (وهو الأصل الحقيقي) صوتا غير مستحسن أو صوتا مستقبحا. فعلوا ذلك، إما بمعيار الشيوع وقلته أو بمعيار الوضع الاجتماعي لمستعملي الصورتين، وإما لعدم الإلمام بالأصل السامي لهذا الصوت.

ومن الجدير بالذكر أن التطور الذي أصاب الجيم العربية ، من [g ——◄ dj]، وقع مثله في لغات أخرى. فالصوت الإنجليزي [g] في نحو «go» قد تعرض لهذا التطور، أي إصابته باحتكاك مصاحب للوقفة، إذا تلته حركة أمامية ضيقة أو ما في حيّزها وهي ما يشار إليها في

الألفباء العادية عندهم الآن بالرموز [i-e-y]. وبقى هذا الصوت على حاله مع الحركات الأمامية المتسعة والحركات الخلفية فى مجموعها، وهى ما يرمز لها فى الكتابة العادية بالرموز [ɑ-o-u] أو ما يدخل فى إطارها من حركات فردية أو مزدوجة . كما فى نحو «gaul» [g ɔ: ℓ] .

ثم شاع هذا التطور، ولم يعد مقصورا على السياقات المذكورة، حتى تولد منه وعنه صوت آخر ، هو الوقفة الاحتكاكية [dj] الذى يرمز إليه الآن فى الكتابة الألفبائية بالرمز [j]، كما فى نحو joy [dj ɔi]. وكانت النتيجة وجود صوتين مستقلين فى هذه اللغة، يمثل كل منهما وحدة صوتية قائمة بذاتها (phoneme)، لها وظائفها المميزة فى بنية الكلمة الإنجليزية. ومن اللافت للنظر أن هاتين الوحدتين [g و dj] تجريان الآن جنبا إلى جنب فى مستوى لغوى واحد، هو مايشار إليه بالإنجليزية النموذجية أو المثالية standerd or ideal English .

وأكثر من هذا، ظل الأصل الإنجليزى [g] ينطق حتى الآن نطق الصوت المطور عنه [dj] فى السياقات المذكورة سابقا، أى إذا تلته حركة أمامية ضيقة (أو ما فى إطارها)، وتقابلها الكسرة فى اللغة العربية.

تأمل الأمثلة الآتية، وهى مسجلة بالرسم الألفبائى العادى، مع ما يقابلها بالترجمة النطقية ممثلة بالكتابة الصوتية الدولية :

gin [dj in] - gist [dj ist]

gentleman [dj entlman] - generus [dj enarəs]

gypsy [dj ipsi] - gymnastic [dj imnæstik]

وهناك استثناءات لهذه الظاهرة على أية حال. نلاحظ أن [g] (وهى الأصل) بقيت على حالها فى النطق الأصلى ولم تتطور إلى [dj] فى السياقات المذكورة فى أمثلة متناثرة هنا وهناك، كما فى مثل get [get] و give [giv]. ومع ذلك نلاحظ أن كثيرا من هذه الأمثلة التى تقع فيها [g] متلوة بحركة أمامية ضيقة (الكسرة فى العربية)، ويحتمل حينئذ نطقها [dj] ، وفقا للقاعدة العامة، يؤتى لها فى الألفباء العادية بالرمز [u]، تاليا لها، حتى تبقى على أصلها دون تغيير، كما فى نحو guest [gest] guilt [gilt] فهذا الرمز الكتابى [u] إنما جىء به لحماية [g] من صيرورتها [dj]، وللتنبيه على وجوب إبقائها على حالها الأصلى، على الرغم من أنها متلوّة بالحركة الأمامية الضيقة (فى النطق) التى تقتضى نطقها [dj] طبقا للقاعدة العامة فى مثل هذه الحالات[1].

وفى النهاية نقول : لعل ما ذكرنا فى هذا المقام يؤكد زعمنا (وكثيرين غيرنا) من أن الأصل فى الجيم فى لغتنا هو نطقها قصية وقفة انفجارية [g] ، ثم تطور هذا النطق فى البدء فى سياقات معينة إلى الصورة الموسومة باللثوية - الوقفة - الاحتكاكية [dj]. وشاعت هذه الصورة الثانية وعدَّت النطق الموثوق به، وعليها سار الثقات من قراء القرآن الكريم حتى اليوم. أما الصورة الأولى، فعلى الرغم من وجودها (وكونها أصلا) حسبوها صوتا مستقبحا أو غير مستحسن. ومع ذلك بقيت آثارها دارجة على ألسن بعض العرب حتى اليوم، كما فى الحواضر المصرية، وبعض جهات اليمن، كما قررنا سابقا .

(١) ومن هنا وجب كتابة «جيزة» (اسم المدينة المعروفة) و «نجيب» (علما) Naguib Guiza ، إذا أريد تصوير نطق القاهريين ونحوهم للجيم [g] ، إذ لو كتبنا ، Giza و Naguib ، بدون [u] لاقتضى الأمر نطق الجيم فيها [dj] ، وهو غير مقصود .

ولم تقف قصة الجيم عند هذا الحد. فلنطقها صور أخرى لها وجود واقعى وآثار مؤكدة فى القديم والحديث على سواء . هذه الصور الأخرى كلها متطورة عن الصورة المسماة بالفصيحة أى اللثوية – الحنكية الوقفة–الاحتكاكية [dj] التى هى نفسها متطورة عن الصورة القصية الوقفة الانفجارية [g] وهى الأصل. وبيان ذلك نورده فى الصفحات التالية.

الجيم دالا [d dj] :

إنا لنزعم أن هذه الصورة من النطق كان لها وجود فى القديم، وإن لم يلتفت إليها غالبية الدارسين آنذاك. فهناك أمثلة متناثرة فى معجمات اللغة تشير إلى صحة هذا الزعم. من ذلك ما جاء فى «لسان العرب» يقال «رجل دهورى الصوت» (بالدال) وهو الصلب الصوت» . وعلى الرغم من أن الأزهرى عدّ هذا النطق (بالدال) خطأ، حيث قال: «أظن هذا خطأ، والصواب جهورى الصوت (بالجيم)، أى رفيع الصوت» على الرغم من هذا الذى رآه الأزهرى، فإنا ما زلنا نميل إلى احتمال وقوع هذا النطق بالدال فى القديم، وإن أهمل الدارسون الإشارة إليه، إما لعدم الالتفات إليه، وإما لحسبانه خارجا عن الشائع المألوف، وعن معاييرهم الوصفية للجيم.

وقد لفت نظرنا د. إبراهيم أنيس إلى احتمال نطق الجيم دالا فى قوله تعالى: ﴿والسماء ذات البروج﴾؛ إذ إن هذا النطق بالدال يتسق صوتيا مع فواصل الآيات التالية التى جاءت بالدال الصريحة كتبا ونطقا . وهذه الآيات هى: ﴿واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾. [سورة البروج : ٢ – ٧] .

وهذا الزعم من احتمال نطق الجيم دالا على ألسنة بعض الناس فى لهجة من اللهجات، يؤيده ما تدرج عليه ألسنة بعض العامة الآن فى مصر جنوبها وشمالها، على ما هو معروف لنا جميعا. ففى الصعيد يقولون «دردا» فى «جرجا» و«ديش» فى «جيش»، والمثال الثانى شائع معروف فى بعض جهات الوجه البحرى. وعندنا على الحدود الفاصلة بين محافظتى كفر الشيخ والغربية قريتان، تكتب أسماؤهما «جناج» و«منية جناج»، ولكن العامة تنطق الجيم الأخيرة فى الحالتين دالا «جناد» و«منية جناد».

وقد روى لنا زميلنا د. عبد الله الطيب رئيس مجمع اللغة العربية بالسودان، أنه لاحظ وقوع تبادل بين الجيم والدال على ألسنة بعض الناس. «فالبجاة» مثلا الذين ورد اسمهم فى شعر أبى الطيب، يسمون أنفسهم «البداة» بالدال. ويضيف: «وتأبى (هذه القبيلة) إلا أن نجعل جيمها دالا، للدلالة على عجمتها. (هذا رأيه ولكنه واقع) .

ونطق الجيم دالا له مسوغ فسيولوجى. ذلك أن الجيم الفصيحة – كما سبق أن ذكرنا – صوت مركب من عنصرين متلازمين، مكونين وحدة واحدة، العنصر الأول هو دال أو ما يشبه أن يكون كذلك، والثانى هو الجيم الشامية أو ما ينحو نحوها. ومن ثم كان تصوير نطقها بالكتابة الصوتية الدولية بالرمز [dj]، إشارة إلى هذه البنية المركبة. فلربما اكتفى بعض الناس فى البدء بنطق العنصر الأول، واستبدلوه بالجيم الخالصة المركبة اللثوية – الحنكية، وحولوه – بسبب فسيولوجى محض – دالا خالصة، أى وقفة أسنانية – لثوية. وكانت

النتيجة اختلافا فى المخارج وبعض الصفات كذلك، فكان الصوت النهائى هو الدال [d] لا الجيم [dj] مع احتفاظ كل منهما بصفة الجهر.

نطق الجيم جيما شامية [j]

وهذه صورة أخرى من صور نطق الجيم المركبة (الوقفة- الاحتكاكية) . وسميناها الجيم الشامية بقصد التمييز ، ولانتشارها ، بل ولصيرورتها حاليا الصورة التقليدية. المستقرة فى نطق الشاميين بوجه خاص.

ولهذه الصورة من النطق - فى رأينا - وجود فى القديم . فعلى الرغم من عدم ترجمته فى النطق برمز كتابى (لعجز الألفباء العربية عن هذه الترجمة) تقابلنا إشارات واضحة فى أقوالهم تؤيد هذا الوجود وتؤكد وقوعه. من ذلك قول سيبويه (عند الكلام على الياء والجيم والشين، وهى من منطقة واحدة عندهم): «والجيم أيضا قد قربت منها، فجعلت بمنزلة الشين. من ذلك قولهم فى الأجدر: «الأشدر» وقوله عند الكلام على الحروف غير المستحسنة: «ومن الحروف غير المستحسنة... والجيم التى كالشين» ومثله فى المعنى، - وإن اختلفت معنى العبارة، لزيادة التوضيح - ما جاء على لسان صاحب «ارتشاف الضرب» (جـ١ ص٩): «ومن الحروف المستقبحة... وجيم **كشين** فرع عن الجيم الخالصة. وأكثر من ذلك إذا سكنت وبعدها دال، نحو قولهم فى الأجدر - **الأشدر** ، وقالوا فى اجتمعوا اشتمعوا».

فالتشبيه بالشين فى هذه الأقوال لا يعدو - عند العارفين - أن يكون المقصود هو تلك الصورة التى سميناها الجيم الشامية التى فاتهم إدراك صفاتها الحقيقية. ولهم العذر فى ذلك، إذ إن الشين والجيم

الشامية صوتان متفقان فى كل الصفات والسمات، باستثناء الهمس فى الشين والجهر فى الجيم. فالشين صوت احتكاكى لثوى - حنكى مهموس، والجيم الشامية صوت احتكاكى لثوى - حنكى مجهور.

ويؤيد تفسيرنا بأن هذه الصورة هى الجيم الشامية (لا الشين) احتفاظ هذه الصورة بصفة مهمة من صفات الأصل المولدة منه أو عنه، وهى صفة الجهر ، من باب التناسق بينهما - حدث (ويحدث) هذا فى حالات أخرى. عندما أصيبت الكاف بالكشكشة (الاحتكاك المصاحب للوقفة) احتفظت الصورة المولدة منها بسمة الهمس، تناسقا مع همس الأصل وهو الكاف الخالصة.

ومعنى هذا كله، أن الناطقين - فى القديم والحديث - للجيم جيما شامية اكتفوا بالجزء الثانى من نطق الجيم الأصلية [dj] (الوقفة - الاحتكاكية) وحوّلوه إلى صوت احتكاكى صرف [j] ، مع الاحتفاظ بمخرج الأصل والإبقاء على الجهر، كما قررنا سابقا.

وهذه الصورة من النطق هى السائدة فى نطق السوريين ونحوهم من الأردنيين والفلسطينيين وغيرهم. والقول بأن الجيم الشامية أثر باق من آثار اللغة الفرنسية قول غير دقيق، ولا يعتمد على أساس علمى مقبول. ومن اللافت للنظر أن هذه الصورة الشامية يأتى بها الآن كثير من الناس فى مصر عند محاولتهم نطق الجيم الفصيحة [dj] التى يصعب عليهم الإتيان بها على وجهها الصحيح، لعدم الخبرة الصوتية الكافية، ولأخذهم فى معظم تعاملهم اللغوى بالجيم القاهرية [g].

الجيم الياء [y] :

وردت آثار وأقوال تدل على أن الجيم كانت تنطق ياء خالصة فى القديم، ونسب بعضهم هذا السلوك اللغوى إلى «تميم».

جاء فى «المخصص» لابن سيده: «ويقولون: حارّ يارّ وحرّان ويرّان، وحارّ وجارّ. والجار الذى يجرّ الشىء الذى يصيبه من شدة الحرارة، كأنه ينزعه ويسلخه»، إلى أن يقول: «ويمكن أن يكون يارّ لغة فى جارّ، كما قالوا الصهاريج والصهارىّ وصهريج وصهرىّ، وصهرىّ (بالياء) لغة تميم. كما قالوا شيرة (بكسرة الشين) لشجرة» [1].

ومثله ما ورد فى «تاج العروس» فى مادة «بصبص» (بالباء). يقول: «ويحكى ابن برى عن أبى على القالى، قال: الذى يرويه البصريون عن أبى زيد «يصّص» بالياء التحتية، **لأنها قد تبدل جيما كثيرا** لقربها فى المخرج، **كايّل وإجّل**» [2].

ولم يقف هذا التعاقب بين الجيم والياء عند هذا الحدّ، بل امتد إلى بعض القراءات القرآنية. جاء فى «البحر المحيط» (جـ ١ ص ١٥٨) : «وقرئ ولا تقربوا هذه الشيرة (بكسر الشين)، وجاء فى شعرهم: وتحسبه بين الأكام شيرة» (بكسر الشين).

وهذا النطق نفسه، أى تحويل الجيم إلى الياء، مسموع الآن وبكثرة كاثرة بين أهالى الخليج العربى، وبخاصة فى الكويت، حيث يبدو أن هذه الصورة من النطق أصبحت تقليدا مستقرًا على ألسنة العامة والخاصة على سواء .

---

(١) المخصص ج١٤ ، ص ٣٣-٣٤، طبعة بولاق ١٣٢٠ هـ .

(٢) تاج العروس ج١٧ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ .

وهذا التعاقب بين الجيم والياء فى النطق ليس أمرا غريبا أو مستبعدا. فكما ورد وسمع نطق الجيم ياء وقع ما يقابله أيضا، وهو نطق الياء جيما، كما فى البيت المشهور :

خالى عُويف وأبو عَلِجّ   المطعمان اللحم فى العَشِجّ

(بنطق الياء جيما)

وهذا التعاقب أو التبادل بين هذين الصوتين (الجيم الفصيحة والياء) له تفسير فسيولوجى يتمثل فى قرب مخرجهما، أو قل إنهما من حيِّز نطقى واحد. وهذا ما أدركه بعضهم حين حسبوا الجيم والياء ومعهما الشين من مخرج واحد، وسموها «الحروف الشجرية»، نسبة إلى «شجر الفم»، ومال بعض الدارسين إلى نسبة الأصوات الثلاثة إلى وسط الحنك، وسموها الأصوات الوسطية. يقول صاحب «الارتشاف»: (جـ١ ص ٨): المخرج السادس وهو الجيم والشين والياء. وهى من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك».

الجيم زايا [z] :

قد يبدو لبعضهم أن نطق الجيم زايا أمر غريب أو مستبعد. ولكن التاريخ اللغوى يحكى وقوعه فى القديم، ومازال لهذا النطق أثر فى بعض اللهجات العربية (وغيرها) حتى الآن .

وأشار نفر من الدارسين فى القديم إلى وقوعه، وإن كان أكثرهم ينسبه إلى غير العرب. يقول الجاحظ (البيان والتبيين جـ ١٢ ص ٧٠ – ٧١ طبعة السندوبى): «ألا ترى أن السّندى إذا جُلب كبيرا، فإنه لا يستطع إلا أن يجعل الجيم زايا، ولو أقام فى عليا تميم»؟. ومثله ما ورد فى

«الأغانى» من «أن أبا عطاء السندى كان يقول زرادة للجرادة. وكانوا يغالطونه فى ذلك».

أما صاحب «ارتشاف الضرب» فقد أشار إلى نطق الجيم زايا، دون نسبته إلى قوم معينين. يقول (جـ ١ ص ١٠) : «زاد بعضهم أحرفا لم يذكرها سيبويه. وهى الشين كالزاى، كقولهم فى أشرب ازرب، **والجيم كالزاى**، كقولهم فى اخرج أخرز» ، وأكثر من ذلك حسب هذا الشيخ نفسه هذه الصورة النطقية للجيم صورة مستحسنة، بوصفها فرعا عن الأصل. يقول (جـ ١ ص ٨): «ولبعض الحروف فروع **تستحسن** . فمن ذلك ... والشين التى كالجيم فرع عن الجيم الخالصة. وذلك قولهم فى أشدق وأجدق، والصاد والسين **والجيم اللواتى كالزاى**، فروع عن الزاى الخالصة، وذلك مزدر فى مصدر بين الصاد والزاى، وزهير فى سهير، بين السين والزاى، **وفى جابر زابر بين الجيم والزاى**».

ومهما يكن الأمر، فإن هذه الآثار تدل على أن نطق الجيم زايا كان له وجود فى القديم، وإن اختلفوا فى الحكم عليه، وفى نسبته إلى أصحابه. وقد بقى أثره وتسرب إلى بعض اللجهات العربية الحديثة، كما فى تونس وفلسطين . جاء فى بحث للدكتور الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة، بعنوان «العربية فى تونس بين الفصحى والعامية»: «فسكان المدن والحواضر والقرى يبدلون الجيم زايا، فى مثل: جوز – زوز بمعنى «ثمرة» وزوز أيضا بمعنى (بعل واثنان) وفى جاز يقال زاز، بمعنى دخل وفى جنس يقال زنس». (مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٤١ ص ٩٥). وفى مناقشة هذا البحث علق عليه الدكتور إسحاق موسى الحسينى بقوله (ضمن ما قال) : «ونطق الجيم زايا له نظير عندنا (أى فى فلسطين) .

ونلاحظ أيضا الآن أن نطق الجيم زايا يجرى على ألسنة بعض الأفارقة ذوى اللغات أو اللهجات التى اقترضت كلمات عربية تنتظم صوت الجيم.

★ ★ ★

كل ما تقدم يحكى قصة الجيم (ج) فى العربية، ومسار تطورها فى صورة نطقية، بلغت ستا. وها هى ذى فى إيجاز موجز:

١ - صوت قصى وقفة انفجارية plosive stop، مجهور. ورمزه فى الكتابة الصوتية الدولية international phonetic transcription وهو [g]. وهذه الصورة من النطق هى الأصل فى العربية (واللغات السامية فى مجموعها، وقد أشرنا إليها بالجيم القاهرية بقصد التمييز وتسهيل إدراك حقيقتها على الناس .

٢ - صوت لثوى - حنكى وقفة - احتكاكية (مركب) affricate مجهور. ورمزه .[dj] وهذه الصورة من النطق متطورة عن الأصل السابق، وعليها سار (ويسير) الثقات من قراء القرآن الكريم. وهذه الصورة أيضا هى التى تولدت منها الصور الأربع الباقية، على ما سبق بيانه .

٣ - صوت أسنانى - لثوى وقفة انفجارية مجهور.

ورمزه [d] ، وهو يمثل الجزء الأول من نطق الصوت المركب [dj]. وهذه الصورة من النطق كان لها نوع من الوجود فى القديم، وامتد أثره حتى الآن فى نطق بعض العامة فى مصر.

٤ - صوت لثوى - حنكى احتكاكى fricative مجهور.

ورمزه [j] . وهو يمثل الجزء الثانى من نطق الصوت المركب [dj] وهذه الصورة من النطق، كان لها وجود فى القديم، وإن حسبه علماء العربية شينا أو ما يشبهها. على ضرب من التوهم، وعدّوها صوتا غير مستحسن (انظر تفصيل القول فى ذلك فيما سبق) وهذه الصورة كذلك هى الدارجة الآن على ألسنة الشاميين، ومن ثم نعتناها بالجيم الشامية للتمييز. ونسمعها الآن فى نطق بعض المصريين عند فشلهم فى نطق الجيم الفصيحة المركبة [dj] .

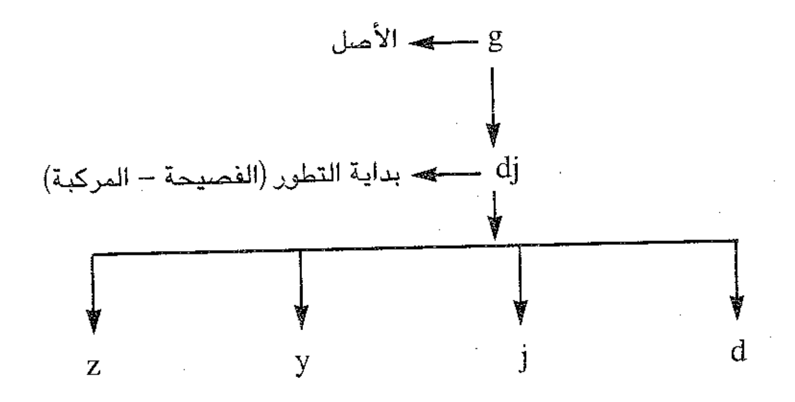
٥ – صوت صامت (أو نصف حركة) semi - vowel حنكى وسيط مجهور.

ورمزه [y] ، وهى الياء فى نحو يكتب. وهذه الصورة تصدر من مخرج قريب من مخرج الجيم المولدة منها [dj] أو هى من حيزها، على ما رأى علماء العربية. ولم ينكر أحد وجود آثار لها فى القديم، وهى أيضا الصورة الدارجة المستقرة على ألسنة بعض أهالى الخليج الآن وبخاصة الكويت .

٦ – صوت لثوى – احتكاكى مجهور.

ورمزه [z] . وهذه الصورة من النطق أشار إليها بعض علماء العربية، ونسبها أكثرهم إلى غير العرب، وما زالت حتى الآن لها آثار فى بعض اللهجات الحديثة، كما فى تونس وفلسطين .

وفيما يلى رسم بسيط يوضح لنا هذه الصور الست ، وخط مسيرتها من حيث الأصلية والفرعية ، دون نظر إلى فكرة الصواب والخطأ أو إلى القلة والكثرة فى الاستعمال. ولهذه الصور – كما قدمنا – تفسير فسيولوجى، باستثناء الصورة السادسة [z] ، فهى فى حاجة إلى معاودة النظر .



وهذا رسم آخر أهداه إلينا صديقنا وزميلنا الراحل الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق (سابقا) بعد استماعه إلى محاضرة لنا بمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٩١م . ونحن نسجله هنا تكريما له وتخليدا لذكراه، رحمه الله وجعل الجنة مثواه .

كيف ينطق العرب حرف «الجيم»

رسم يوضح الصور الست لنطق الجيم العربية مع رموزها اللسانية العالمية

١
الرمز الصوتى
g = گ
الجيم كما كانت تنطق باللغات السامية ومنها: اللغة العربية ، ويسود النطق بها اليوم فى بعض نواحى اليمن وفى الحواضر المصرية ولا سيما فى القاهرة وتسمى : الجيم القاهرية

٢
الرمز الصوتى
dj ج
الجيم الفصيحة
بها جاء القرآن الكريم وتسمى : القرشية وقد تسمع فى بعض أنحاء الريف المصرى وبلاد أخرى

٣
الرمز الصوتى
D د
الجيم كما تنطق عند بعض أبناء الصعيد وعند بعض أبناء الوجه البحرى غير المثقفين فيقولون : ديش فى جيش

٤
الرمز الصوتى
J ج
الجيم كما تنطق فى بلاد الشام : سورية. لبنان . الأردن . فلسطين ، وتسمع اليوم من بعض المصريين

٥
الرمز الصوتى
Y ي
الجيم كما تنطق فى بعض أنحاء الخليج وخاصة الكويت ؛ فيقولون : دياي فى دجاج ، وريال فى رجال

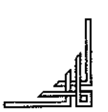
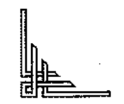
٦
الرمز الصوتى
Z زاي
الجيم فى لهجات حديثة ولها أصل قديم وتسمع اليوم فى تونس، وفلسطين؛ فيقولون : زابر فى جابر ، وزمل فى جمل ، وفى بعض اللهجات الأفريقية فى الكلمات المقترضة من العربية

شكل رقم (١٠)

النطق بالجيم فى دراسة مجمعية للدكتور كمال بشر
تخطيط عدنان الخطيب
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م



الفصل الثالث
«الأصوات البينية وأنصاف الحركات»



وبه مبحثان:

المبحث الأول : أصوات «لم نر»

أو «الأصوات البينية»

المبحث الثاني : أنصاف الحركات

(الواو والياء)

